نبوءة العرافة



رجب أبو سرية

٢٠٠٢

نبوءة العرافة

مونودراما روائية

رجب أبو سرية

طباعة وصف وتنضيد/ قصي أبو القمصان

– لن تشيخ يوماً يا بني . . لن تشيخ أبداً . . أبداً

قالت بمنتهى الجدية، وعلى غير ما كنا عليه نحن من عبث واستخفاف بالأمر، قالت المرأة المتشحة بالسواد، المثقلة بالكثير من العقود والأساور "والدناديش"، وهي تتأمل كفّي الملقاة أمام عينيها.

– لن تعرف الشيخوخة في يومٍ من الأيام، وستبقى ممتلئاً بالحياة، مفعماً بالأمل، تملك قلباً باتساع الكون، ستحب كل من تعرف، وسيحبك كل من حولك، لكنك، ثم قطبت حاجبيها. وقالت بأسى:

– ستظل تحت وطأة شعورٍ صعب، يبدو لي غامضاً مبهماً، شعور بافتقاد شيءٍ ما، ربما امرأة، ربما غنى، ربما شهرة، لست أعلم، سيؤرقك، وستبقى تركض وراءه، فيما يهرب هو من أمامك، كأنه السراب.

سحبت كفي من بين أصابعها، ثم ألقيت بنفسي في البحر، أتأمل زرقة السماء، باحثاً عن برهةٍ من ارتخاء الذهن الذي أوجعته الأحلام، وأرهقته جذوة التفكير في خطط المستقبل.

كان حديث العرافة، التي مرت بنا على شاطئ البحر، مناسبة للتندر بيننا على طاولة العشاء، بعد يومنا الخاطف الذي حفل بأطياف النساء والمواقف الهازلة والنكات، التي ما كانت تعرفها حياتنا إلا في المناسبات، وكنت أنا المعروف بجديتي محط هجوم الأصدقاء، لا لسببٍ سوى أنني قد استسلمت للمرأة الجاهلة، وبسطت لها كفي، حتى تقرأ لي طالعاً يطويه الغيب، ومستقبلاً يحفظه القدر.

– أظهر على حقيقتك أيها البائس، أنت لا تثق في حقيقة الأمر بقدرتك على بناء مستقبلك فضلاً عن إيمانك بأن هذا المستقبل إنما هو جزء من مستقبلنا جميعاً، أنت ما زلت هشاً بوعيك، ولم تتخلص بعد من أفكارك البرجوازية . . .

– ليس الأمر على هذا النحو أيها الأصدقاء، أردت فقط أن أمارس بعضاً من اللهو، وجاءت الواقعة في سياق لهونا واستمتاعنا بشاطئ البحر، حيث الهواء والنساء واستراحة الذهن والخيال وراحة العقل والقلب.

– لكنك استمعت لها وأخذت كلماتها على محمل الجد، حتى أنك شعرت بامتعاض حين أنبأتك بالأرق والسراب.

شعرت بالأسى، وكدت أختنق من اتهام الأصدقاء، الذي تجاوز حدود الدعابة، في الوقت الذي خشيت فيه أن يكونوا على قليل من الصواب، وقبل أن أبدأ بالانفعال ورد الفعل، كما هي طبيعتي تدّخل أحدهم وأغلق الموضوع، لنواصل تناول عشائنا، على إيقاع حوارٍ أكثر جدية من واقعة العرافة.

أيام البحر تلك على أهميتها لم يكن بمقدورها أن تغير من طبيعتنا، وإن كانت بالنسبة لي أنا تحديداً قد فعلت فعلها، حيث لاقت هوى، ظل دفيناً في أعماق الوقت، وكانت مناسبة لأجلس مع الفتاة التي كانت أجمل من رأيت وأرق من صادفت، لكنها لم تكن على أي حال مطابقة تماماً لتلك الصورة المرسومة دوماً في خيالي، منذ وعيت الدنيا، وبدأت أقرأ القصص وأسمع الإذاعيات، كنت أراقبها وهي تعبث بأصابعها حبات الرمل على الشاطئ، تغرس قدميها الحافيتين في الرمال الرطبة، بعد أن شمرت سروالها الأزرق عن ساقيها الرفيعتين، أسرق النظرة إلى ربضة الساق البضة، فتجول بخاطري اشتهاءة، سرعان ما ألاحقها بالإدانة . .

أسماء، اسم جميل وعذب، يتردد في خاطري، ويثير في نفسي التساؤل عن سر هذا التشابه الذي ساقه القدر، مع اسمي، سرعان ما ألقي باحتمال أن يكون القدر هو صاحب هذه المصادفة، بالقول بأنه لولا التشابه في الاسم وفي المحتوى، لما كان الشعور الأول بالألفة بيننا أصلاً، ولولا أننا نحن الاثنين، لم نكن ننتمي إلى هذه المجموعة المتجانسة في الأفكار والاختيارات، لما كان التآلف بين كل اثنين أصلاً، وكأننا وبعد أن اجتمعنا، عقدنا اتفاقاً غير معلن، على التآلف اثنين . . اثنين . .

– مازلنا على مقاعد الدراسة, ولأنك الوحيد الغريب بيننا, فلا بد أن يجيء اليوم الذي تغادرنا فيه, حينها ماذا سيكون مصير حبنا؟

– قلت حبنا؟! ليس بعد, بل قولي ما هو مصير علاقتنا الخاصة هذه.. نحن نمتلك الشعور المتبادل الآن, لكن مشوارنا ما زال طويلاً, حتى نقرر إن كنا سنتشارك في حياتنا الخاصة.

– اسمعي، أنا أعتقد أننا مناسبان لبعضنا، لكن ظروفي ما زالت لا تؤهلني لأعلن عن الارتباط النهائي بك بعد، فمثل هذا الإعلان يترتب عليه كثير من التفاصيل، وبحاجة إلى ظروف عامة مواتية، أنا لم أتخرج بعد، ومصيري ليس طبيعياً، فضلاً عن أن مستقبلي ما زال غامضاً، ليس بالنسبة لك، ولكن بالنسبة لي أيضاً.

– فماذا نفعل إذاً؟

– لا شيء سوى أن نستمر في التعرف على بعضنا أكثر، وعليك أن تستفيدي من الوقف لتفكري ملياً إن كان بوسعك فعلاً أن تحتملي ما يمكن أن أتعرض له في المستقبل من مشاكل.

– الحب يا عزيزي يصنع المعجزات، وما دمت أؤمن بك وبأفكارك، يمكننا أن نواجه الكون بأسره، نحن نحب بعقولنا أيضاً يا عزيزتي وليس بقلوبنا وحسب، وما دام مصيري ليس بيدي، فإن مستقبلنا، ليس أنا وأنت فقط، بل مستقبل كل المجموعة لن يكون بيدنا وحدنا ..

كانت كلماتي تحد من اندفاعة مشاعر الصبية الحالمة، التي لا تفكر سوى بحبنا، أما أنا فكانت أحلامي لا تقتصر عليها فقط، لذا ومع أول فوج من الطلبة الملتحقين بصفوف الثورة، كنت أطير لأواجه مع رفاقي الاجتياح، وكنت أجدني بعد ذلك أشق عباب البحر مع المغادرين إلى المنافي البعيدة، فيما ظلت أسماء من يومها، ليست أكثر من حلم من أحلامنا الكثيرة التي لم تتحقق، رغم إيماننا العميق بها، ورغم أننا كنا دائماً على استعداد للموت في سبيلها.

أسماء، أيها الحب المستحيل، لقد نجوت من الموت بأعجوبة، وما زال مصيري مجهولاً، ومستقبلي غامضاً، ولأنني أحبك، وأتمنى لك الحياة السعيدة، فإنني أتوسل إليك أن تقبلي أمجد عريساً لك، أمجد صديقنا المشترك، الذي طالما كان يتودد إليك، وينافسني على قلبك، لن أنسى أبداً أن قلبك فضلني عليه، لكن يجب أن تتحلي بالحكمة والواقعية، أنا لا أناسبك، ليس لأنني أشك في حبك لي، وليس لأنني لا أحبك، بل لأن ظروفي ستجعل من حياتك، وحياتنا جحيماً لا يطاق.

لا أنكر أني كنت أحترق وأنا أكتب إليها هذه الكلمات، بعد أن أخفيت عنها قصيدي الذي قلت فيه:

لا أجمل من أنثى تفتن

كل الكون

وتحبك وحدك

إلا امرأة تفتنها أنت

فتعشق كل رجال الدنيا

ولا تنسى زندك

كانت أسماء هكذا امرأة عذبة، رغم صغر سنها وضآلة حجمها، لكنها كانت تتمتع بجاذبية طاغية وإغواء لا مثيل له، وقع في حبها كل من رآها، لكنها أحبتني أنا وحدي، وبعد أن اقتنعت على غير هوى، وأنجبت طفلها الأول، أسمته أسامة على اسمي.

لم يحتج أمجد، كما علمت لاحقاً، لأنه كان يقدر شعورنا، وكان واحداً منا، طالما أحببنا بعضنا، وملأنا الفخر أحدنا بالآخرين.

أما أنا فعقدت العزم بدوري، إذا ما قُدر لي يوماً وتزوجت وأنجبت أولاداً، أن أسمي البنت أسماء والولد أمجد، وقلت في نفسي إذا كان أصدقائي قد عوضوا غيابي بأسامة الصغير، فإنني بحاجة إلى دزينة من الأولاد والبنات أسميهم على أسمائهم جميعاً لأعوض نفسي عن غيابهم.

ولكن الأصدقاء لم يكفوا عن الوجود في طريقي، وكانت مليكة واحدة لا تقل هوى في نفسي عن أسماء، أي قدرٍ حنون هذا الذي ساقك في طريقي يا مليكة، بعد أن تسربت إلى أعماقي أسراب الحزن والاكتئاب، نذهب إلى البحر، نصطاد السمك، ونطير الأحلام في السماء، عسى أن تعود إلينا يوماً على شاكلة الحقيقة.

- هل أنت سعيدة معي يا مليكة؟

- كل السعادة.

ثم تتكسر قليلاً حين تسألني كما كل مرة.

- متى نتزوج إذاً!

- ليس بيدي، لست قادراً على اتخاذ مثل هذا القرار الخطير،

- خطير؟

تتساءل باستهجان.

- نعم يا عزيزتي، فحبي لك يمنعني من أن أضعك على طريق المجهول، هل نسيت أننا اليوم هنا، لكننا لا نعلم أين نكون غداً، وإذا كنت أنا نفسي اليوم حياً بين يديك، فلست واثقاً إن كنت سأكون كذلك بعد شهر، فماذا تجنين من الارتباط بشخص ذي مصير مجهول، بل بإنسان حياته غير أكيدة، وماذا يفيدك أن تصيري أرملة وأنت في عز الشباب.

تطأطيء رأسها محبطة، وتقبل أن تكون حبيبتي اليوم، آملة في أن تجيء أيام مقبلة بما من شأنه أن يغير رأيي.

****

لم تنته رحلة التيه بالنسبة لأسامة حتى بعد أن أقنعوه أن يتزوج من السيدة انتصار أرملة الشهيد فوزي، ليكون زوجاً لها وأباً لأولادها، وظل طيف أسماء يجول بخياله كل ليلة، وحب مليكة يدق جدران قلبه كل مساء.

كانت تلتهم حبة "الآيس كريم" بشهية بالغة، وتتنطط أمامه كعصفور فرح آمن، تتقافز جديلتاها على وجنتيها بالغة التلازم الدائم، أما هو فيظل طول الوقت يسعى إلى أن يهديء من حركتها الدائبة، وبعد أن تفشل كل محاولاتها، يلجأ إلى اقتراحه الأخير، الذهاب إلى نادي "البيتش".

تجلس قبالته، وتعقد يديها الدقيقتين تحت ذقنها، لا تبعد ناظريها عن وجهه، بينما يتحدث هو طول الوقت، معتقداً بأنها غارقة في الاستماع إليه، وهي في الحقيقة ورغم إعجابها بقدرته على تنميق الكلام، تلتقط أذناها إيقاعه، لكنها لا تعمل العقل كثيراً في منطقه، وحين تلتفت إلى عابر، أو تتطلع إلى طاولة أخرى، يكون فيها اثنان غارقين في الهمس، يتبادلان الابتسام، يجتاحه غضب يكتمه بقوة، ثم يلقي في وجهها الاقتراح السمج بالمغادرة ..

- لسة بدري، عشان خاطري، خلينا شوية.

ثم تعرف بذكائها الفطري ودهائها الأنثوي، كيف تثنيه عن عزمه، وكيف تحتوي دافعه للمغادرة، فتقول:

- أنا معك، بس أنا رأيي، أنه في كثير ناس كاملين، ما بيغلطوا . . زي بابا مثلاً.

يتابع بعد أن ينسى فكرته عن المغادرة، ويعاود حديثه قائلاً:

- الكمال مسألة نسبية، والفكرة أساساً هي فكرة مطلقة، غير واقعية لا تنطبق على الأفراد، المجموع هو الذي يمكن أن يحقق الاكتمال .. يبسط فكرته بالقول، مثلاً في وحدة الأضداد تكمن فكرة الاكتمال، تعني المتضادات نفسها هي مفردات ناقصة مثلاً أنا وأنت، أنا رجل وأنت امرأة...

تقاطعه بالقول:

- أنا بنت وأنت شب..

لا يتوقف عند جملتها الاعتراضية ويواصل ..

- نحن معاً نتوحد بالارتباط ، ويمكننا أن نحقق الحب، وأن نكمل فكرة الجنس، فيكون بمقدورنا أن ننجب أولادا أو أن نواصل دورة الحياة في حين أن كلاً منا وحده ، يعتبر جنساً ناقصاً.

تعجبها الفكرة، فتقول:

– كده صح، مش زي ما قلت امبارح، الفرد غير مكتمل، في حين أن الجماعة هي التي تحقق الكمال..

يتدخل بحنق قائلاً:

– لم أقل هكذا بالضبط ، قلت إن الجماعة المنسجمة، ذات المشروع المحدد والواضح، وصاحبة الأهداف يمكنها أن تحقق فكرة مكتملة، وأن تنجز شيئاً محدداً، في حين أن الفرد عاجز عن فعل ذلك.

تداعبه بحركة معتادة، فتعبث بنظارته وتقول:

– أسامة مش أنت بتحاول تقنعني بأفكارك طب ليه ما تهتم بالمواضيع اللي أنا بحب أسمعها.

يعرف قصدها، فيطلق زفرة حارقة، ويقول:

– اسمعي حتى نصبح لائقين لبعضنا، ومؤهلين للارتباط، لا بد أن تصبح أفكارنا في دائرة واحدة، لا بد أن نتخلى عن أفكارنا الصبيانية، وأن تصبحي أكثر جدية. ثم يواصل ..

– دائرة أفكارك ودائرة أفكاري متناقضتان، ولأنه من المستحيل، .. لأنه من الخطأ أن أنتقل أنا بعد أن اكتشفت الحقيقة، إلى دائرتك، فلا بد أن ترتقي أنت بوعيك إلى مستوى وعيي، لذا لابد أن تصبحي أولاً أكثر جدية، ثم أكثر اهتماماً، ثم عليك أن تبدأي بقراءة الكتب..

ينتابها اليأس ..

– كتب تاني، مش كفاية عليّ كتب الجامعة، عايزني أقرأ الكتب المعقدة اللي بشوفك هاري نفسك مذاكرة فيها..

– ليست مذاكرة يا ستي، بل مطالعة، ثم هي كتب صعبة، لكنها ليست معقدة، بل ممتعة جداً، مثلاً لو تبدأي بقراءة "أصل العائلة",

وقبل أن يبدأ بشرح مضمون الكتاب، تكون هي قد وصلت إلى درجة اليأس التام، فتقترح عليه الذهاب، يوافق على الفور، لكنها تشترط إكمال السهرة في مشاهدة فيلم سينما أو مسرحية.

تقتحم ذراعه بذراعها، فيتلفت مرتبكاً حواليه، ثم يعدّل بيده الأخرى نظارته، كأنما يعدّل هندامه، ثم لا تترك له مجالاً لتحديد الوجهة التي يقصدانها، هي تمتص المشاهد بأحاسيسها، أما هو فيتأمل المواقف

والحوار، ثم يستل من جيب قميصه دفتر ملاحظاته، ويسجل الآراء والكلمات التي سيستعين بها، في النقاش معها.

منذ الصباح لم يكف هدير الطائرات، ولا صوت الانفجارات، كأن أبواب الجحيم قد انفتحت على مصراعيها، وبقدر ما يبدو الموت خاطفاً واعتيادياً، بقدر ما تبدو الحياة لا معنى لها، لا أحد يفكر في شيء سوى في صد الهجوم، وإبعاد الطائرات عن الاقتراب المنخفض، لذا فإن المضادات هي سيدة الموقف، التنظير والتحضير صار شيئاً وراءنا، ولا حقيقة في هذه اللحظة سوى مواجهة الجبروت المدجج بكل أنواع القتل والتدمير، وكأن كل التناقض الذي في الدنيا، قد تركز في دائرة المواجهة الدائرة، لا مكان للأحلام هنا يا أسامة، وأنت لم تعد سوى إصبع يضغط على الزناد وعين تصوب، وفي كثير من الأحيان ليس سوى مشغّل للرشاش، حين تغطي الأخوة والرفاق . . الذين يمرون على شاشة الذاكرة واحداً واحداً، بل رغبة عارمة لتحميهم جميعاً من خطر الموت الداهم، ولو بصدرٍ عارٍ، ما أجمل الحياة في المواقع، نأكل معاً، ونحلم معاً، ونداقع عن بعضنا بعضاً، كأننا شخص واحد، بالكاد نعرف بعضنا، بل تمضي السنون ولا يعرف المقاتل هنا سوى باسمه الحركي، انتفت كل صلات القرابة المعتادة، وتوحد الجميع في الهدف، يوجد بيننا أشقاء عرب، وأصدقاء أمميون، لا يقلون ضراوة عنا في الدفاع عن الثورة والوطن.

لا تسمح الطائرات لذاكرة أسامة ولا لخياله بالارتخاء طويلاً، حيث تتعطل الأحاسيس ويتضرر السمع بالذات، ولا صوت حينها يعلو فوق صوت المضادات، فيظل منفعلاً ومتوتراً إلى أن تحل لحظة أقل صخباً، حينها يتذكر أهل القرية المجاورة للموقع، الذين أرسوا عرفاً في المنطقة، قام على أساس أن تتبنى كل عائلة مقاتلاً، من أولئك الذين جاءوا من أقطار أخرى، يعوضونهم بها عن غربتهم.

على أساس هذا العرف صار أسامة واحداً من عائلة أبي علي، يغسلون ثيابه كل يوم جمعة، ويقضي معهم إجازاته، وأوقات فراغه، يساعدهم في أعمال الحقل، وحين يذهب إلى المدينة، يحضر لهم الحلوى التي يحبها الصغار، لقد أنسوه أهله حقاً، وحين كان ينظر إلى فاطمة، كان يشعر بخجل شديد، إذ كيف يمكن أن يفكر فيها، وما زال قلبه ملكاً لأسماء، التي وعدته على الانتظار، ثم كيف يمكن أن يفكر فيها أيضاً، على هذا النحو، وقد تبنته عائلتها، وهل يمكن للأخ أن يحب أخته، كما يمكن أن يحب الشاب الفتاة، لم يجد إجابة، بل لم يقو على الرد، حين سأله فؤاد، بأن فاطمة فتاة مليحة، وأن شعوره نحوها جزء من حبه لعائلة أبي علي.

– يا أخي انتظر قليلاً، لم يجف بولك بعد، ثم ألم تقل بأنك تركت حبيبتك هناك، كيف يمكن أن تنساها بهذه السرعة، أم تراك كنت تتسلى أو تضيع الوقت معها وحسب.

كاد أن يهوي على وجه صديقه بكفه.

– كيف تقول هذا وأنت تعرفني عز المعرفة؟ بل لأنني أحبها، كما لا يمكنني أن أحب امرأة أخرى، فإنني لا أريد أن أربط مصيرها بمصيري، أنا أعلم بأني لن أعود إلى هناك مرة أخرى، لذا فلا جدوى من أن تستمر في انتظاري، سأكتب لها وسأقول لها ذلك، وربما حين أخبرها بأنني أحببت امرأة أخرى، أو حتى أنني خطبتها أو تزوجتها، فإنها ستتأكد من نهائية موقفي، فتحسم أمرها دوني . .

– لكنك بذلك ستسبب لها صدمة وستجعلها تعاني من الألم .. ماذا إذاً يا صديقي . .

– لا شيء سوى أن تنتظر قليلاً . .

وكأنك كنت تقرأ الغيب، ها هي الدنيا تحترق من حولنا، ومصيرنا يجلس على كف العفريت، ولو كنت تسرعت وخطبت فاطمة، أو قمت بتنمية الشعور المتبادل بيننا، لكنت عرضتها أيضاً لمعاناة، قد لا تقل عن المعاناة التي سببتها لأسماء . . أسماء أيها الطيف الذي لا يبارح خيالي، ويا أيها النسيم الذي أتنفسه مع الهواء، والنبض الذي يلازم قلبي، ماذا تراك تفعلين الآن، ربما كان قلبك يأكله التوجس وأنت تسمعين أخبار الموت التي تحيط بنا . . أهلي في الوطن لا يعلمون بأني هنا . . أما أنت فتعرفين، مع كل طلقة أو قذيفة يتأكد لي بأن الحرب تباعد بيننا، وأن المواجهة تجعل من احتمال عودتي إليك أمراً مستحيلاً . . أنت لا تعرفين ذلك، لذا فإنه إذا ما قُدّر لي أن أنجو من الموت الذي يقترب مني كل لحظة، فإن أول أمر سأفعله هو أن أقنعك بنسياني . .

– المرأة لا تحب في حياتها إلا مرة واحدة، لذا فأنت لن تكون سعيداً معهن أبداً، أنت تحب بعقلك، لذا فأنت تتنقل بينهن كفراشة ..

– أو كالنار.

– ماذا تقصد؟

– لا شئ، لا شئ.

– لكن من قال لك بأني أحب بعقلي وهذه العاطفة الجياشة . .

– لكنك تسيطر عليها دائماً، وغالباً ما تمنطقها بهذا الوعي الصارم الذي يملأ رأسك.

– هذا صحيح.

– ولم يعبأ بجملتي الاعتراضية فواصل القول.

– في الحقيقة أنت تحب نفسك، ويملؤك الزهو وأنت تراهن معجبات بك ..

– أنا؟ بقي أن تقول عني بأني زير نساء، أنسيت كيف أقنعتك بأن تقلع عن تسليع المرأة؟

– لا لم أنس, ولا أنكر بأني كنت مراهقاً، أرى في المرأة وعاءً لحاجتي، وصحيح أيضاً بأنني لم أرك يوماً تجمع حولك أكثر من امرأة واحدة في آن واحد، لكن تتابعهن حولك، يعطي ذات المضمون ونفس المعنى ..

فكرت بالأمر قليلاً، واستسلمت إلى أن في ما يقوله صديقي بعض الصدق، وشيء من صواب المنطق.

حتى أنا . . ومن أنا؟ لست إنسانا خارقاً وإن كنت استثنائياً، أو أسعى إلى أن أكون كذلك، حتى أنا غير قادر على تجاوز الشرط الاجتماعي الذي يحيط بي، والذي كونني وما زال يشكل شخصيتي ..

– أنت شخص لم أر مثله، تحيطني بكل الحب والحنان، أرى فيك أباً وأماً وأختاً وأخاً ووأبنا، وكأن الله قد بعثك لي تعويضاً عن كل العذاب الذي واجهته في حياتي . .

– لكني لا يمكن أن أكون زوجاً لك . .

– لن أتوقف عن المحاولة . .

– لست المرأة التي يمكن أن أضع ترحالي بين يديها . .

_ أسكت لا تقل ذلك وإلا قتلتك . . معك وجدت نفسي بعد أن كنت ضائعة، أنت لم تر شريط ذكرياتي .

– ذكرياتك لا تهمني، ثم أنت تتحدثين وكأن عمرك أربعون عاماً، أية ذكريات يا مليكة هذه التي تتحدثين عنها؟

– لو حدثتك بالتفصيل لكتبت عني رواية . .

– رواية؟ ألا يكفيك فصلٌ من رواية . . أو صفحة من مذكراتي . . هذا إذا قُدر لي يوماً أن أصبح مشهوراً وأكتبها، ليقرأها الناس ..

– من السهل عليكم أنتم الفلسطينيون أن تكونوا مشهورين، ألا تلاحظ كل هذا الحب الذي نحيطكم به هنا؟

- تقولين الحب . . ربما كان العطف أو التعاطف، لكن الحب، من يحب شعباً مظلوماً، أنت هل أحببت يوماً رجلاً ضعيفاً, مسحوقاً؟

- أرجوك لا تدخلني في هذه المتاهات النظرية، حتى لو كنت سأفقدك يوماً، فحرام عليك أن تحرمني متعة هذه الأيام، التي أنت معي فيها . .

- معك كل الحق، وأنا أعتذر . . أعتذر بشدة.

****

كان الصراع بيننا وادارة الجامعة على أشده، بعد أن رفض الوكيل رفضاً قاطعاً أن تتضمن مجلة الحائط، التي كان أسامة يحرر معظمها مقاطع من "أحمد الزعتر"، فما كان منه إلاّ أن أخذ في قراءة تلك المقاطع للأصدقاء، ثم الزملاء، حتى حفظها العشرات . . أية أنظمة هذه يا صديقي التي تضيق ذرعاً بقصيدة .. لو كان الأمر يتوقف عند حدود القصيدة لهان الأمر، فماذا إذا، لقد سمعت بأنهم باتوا يشترطون مصادقة الإدارة على كل عدد، بل على كل مقال من مقالات المجلة، وأنهم .. انهم ماذا أيضاً؟ إنهم صاروا ينظرون إلى اللجنة الثقافية باعتبارها لجنة معارضة، والاتحاد؟ يريدون منه أن يهتم بأمور الرحلات وأن يقتصر على العمل النقابي، فلا يتدخل بالسياسة.

يتدخل بالسياسة، قصدك نوعاً بعينه من السياسة، فلو كان يطبل للسياسة الحاكمة، لانفرجت أساريرهم، ولباركوا خطواته، بل ولكانوا قد شملوه بالرعاية والدعم.

- ما الذي يفاجئك يا صديقي، ألم تقل دائماً بأن السياسة المتناقضة تعبير عن المصالح والطبقات والفئات الاجتماعية المتناقضة؟

- بلى وما زلت أقول ذلك، لماذا نواجه نحن دون دعم من أولئك الذين لهم مصلحة في آرائنا وأفكارنا؟

- لأننا، هكذا وبكل بساطة، لا نغادر هذه الجدران.

- هذه الجدران؟

- وهل مطلوب منا أن نخرج إلى الشارع، نحرض الناس على الثورة والاحتجاج والتمرد.

- ليس هذا بالضبط، لكن جمهورنا هو الطلبة أنفسهم لابد لنا من الحديث أيضاً عن مصالحهم المباشرة، قصدك أن نتحدث عن الرسوم وأسعار الكتب وظروف السكن الجامعي . .

- بالضبط، هذا ما أقصده.

- لكن هذا دوركم، أما أنا فدوري محصور في أن أشرح لكم السياسة المحيطة بالقضية الفلسطينية وحسب.

- لا نختلف . . فعلاً ألسنا صديقين؟

****

- بالمناسبة ما هي أخبار أسماء، لم أركما معاً منذ أيام، ما الحكاية؟

- لا حكاية يا صديقي ولا رواية، دعوتها في لقائنا الأخير إلى زيارتي، فانتفضت وتوجست ويبدو أنها خاصمتني ..

- تقول اللقاء الأخير . .

- لقد ذهب خيالك إلى البعيد، لن يكون بالطبع اللقاء الأخير، بل أقصد في آخر مرة التقيتها . . أنت تعلم أننا اقتربنا من الامتحانات، عرضت عليها أن نذاكر معاً . .

ضحك بخبث وقال لأجل ذلك انزعجت، أم لأنك في الحقيقة كنت تدعوها لزيارتك في شقتك . .

قلت بانفعال

- وماذا في ذلك، ألا تثق بي، ألا تعرفني منذ وقت وبما فيه الكفاية..

استمر على هدوئه،

- ربما لا تثق في نفسها . .

- ماذا . . ماذا تقصد؟ لو كنت تلمح . . لخنقتك بيدي هاتين . .

- اهدأ يا عزيزي، ليس الأمر على هذا النحو، بل قصدت أن أقول، لأنها تحبك، تخشى من لحظة ضعف، يقع فيها أحدكما أو كلاكما . .

ثم تعال هنا، هل أنت واثق بأنكما حين تجلسان وحدكما، ألن ترغب فيها، وحتى هي ألن ترغب فيك .

فكرت قليلاً . . ثم قلت

- ربما كنت أرغب في تقبيلها، ولا أعتقد بأن الأمر يمكن أن يتطور أكثر من ذلك ..

– أرأيت

– وماذا في الأمر إن لم أقبل حبيبتي، من أقبل إذاً ..

– حبيبتك، لكنها ليست زوجتك ولا حتى خطيبتك . . ألا تعرف عاداتنا الشرقية . .

– بل قل ثقافتنا الشرقية، فلتذهب إلى الجحيم، التقبيل وحتى الجنس إنما هو ممارسة عاطفية، تكتسب شرعيتها من تحقق العاطفة المتبادلة، وليس من شئ آخر . .

– قصدك الشيء الرسمي، الخطبة، عقد الزواج مثلاً.

– بالضبط . .

– هذا ما تقوله أنت، أما الآخرون فعلى العكس منك تماماً . .

– أنا لا أعرض حبي على الآخرين، بل على أسماء وحسب . .

– صحيح ولكن أسماء حائرة بينك، أنت الذي تحب، والذي قد تكون مقتنعة بكثير من أفكاره، وبين الناس . .

– مالها والناس إذاً . .

– الناس، أنسيت أن منهم أهلها، صديقاتها، زملاؤها، الجيران، الذين يمكن أن يلوكوا سمعتها بألسنتهم أو على الأقل أن يحرقوها بنظراتهم، لو جارتك بممارسة أفكارك اللعينة . .

– لا تقل لعينة من فضلك . .

– حسن قلت ذلك للتحبب، هي في الحقيقة تحبك وتعلم أنك تحبها، وهي لا تقوى على منح جسدها لسواك، لكن الحل الأمثل بالنسبة لها، هو أن يتم ذلك، في الإطار الرسمي. .

– لكني غير قادر على منحها هذا الإطار . .

– ولم

– أقصد في هذا الوقت، على الأقل.

– وفي المستقبل.

- ربما.

- إذاً ليس أكيداً، إذاً يا صديقي لا تستهجن تصرفها، واذهب واعتذر لها أو صالحها على الأقل ..

****

- يا لك من امرأة، معقولة أنت، ما هذه المفاجأة

- أعجبتك

- المفاجأة أم أنت

قالت بدلال

- حقاً أأعجبك أنا أيضاً؟

قبلتها على وجهها

- أنت امرأة رائعة يا مليكة، وتذكرين عيد ميلادي؟

- بالله عليك أن تسكت.

ووضعت اصبعها على فمي،

- متى ستدرك مقدار حبي لك .. وهل يمكن أن أنسى عيد ميلادك؟

قلت ضاحكاً . .

- بالطبع خاصة وأنه مريح للغاية، يجئ كل أربعة أعوام مرة . .

- آه . . فرصة بالنسبة لي، فمن يدري أين ستكون بعد أربعة أعوام، ومع من ستحتفل؟

- أ أحتفل!

قلت مستنكراً.

- إن لم تفعلي أنت، فمن يفعل.

قالت بانكسار:

- من يدري، ربما تحتفل بك امرأة أخرى في المرة القادمة . .

قلت بأسى:

- وقد لا أكون ليحتفل بي أحدهم!

قالت في محاولة لتغيير وجهة الكلام:

- تعرف أني قررت أن أحتفل بك كل عام، ما دمت معي . .

- كيف؟

- سأعتبر ربع اليوم، عيد ميلادك، وأحتفل خلال الثماني ساعات من كل عام، التي تجئ بين اليومين . .

قلت ضاحكاً:

- أو تحتفلي بي ربع احتفال . .

سايرتني قائلة:

- فكرة هائلة واقتصادية، أحضر لك ربع تورته، وربع زجاجة شمبانيا، وربع عدد الشموع اللازمة، ونرقص معاً ربع رقصة، وندعو ربع المدعوين . .

- المدعوين؟ أين هم . . أم أنك تقصدين أن يحتفل ربعي وربعك معاً . . ثم غطست في ضحك هستيري وأنا أقول . . ولكن المشكلة ستكمن في أي ربع من كلينا سنختار . . ويا عيني لو راقص رأسي قدميك مثلاً . .

ثم امتلكتني مليكة، كما لو كانت القدر الذي لا فكاك منه، امرأة بكل معنى الكلمة، كانت كلهن جميعاً . . كانت أمي وأختي وحبيبتي وحتى زوجتي . . لكن وبالرغم من كل السعادة التي أحاطتني بها، لم يفارقني الشعور يوماً بأننا لابد أن نفترق في يوم من الأيام . . ولن تكون بالنسبة لي أكثر من ذكرى رائعة . . ولن أكون بالنسبة لها أكثر من حلم استعصى على المنال . .

****

حينما أحضرت لها تلك المسجلة الصغيرة، حتى أريحها من العراك اليومي مع أهل البيت، الذين فيهم من لا

يفوت نشرة للأخبار، خاصة إذاعة مونت كارلو، وفاطمة لا تكاد تغير مؤشر المذياع عن محطة الـ أف أم ، أو عن تشغيل محرك الكاسيت . .

- ما هي الأشرطة التي تحبين سماعها يا فاطمة

دون تردد قالت

- كل تلك الخاصة بمارسيل خليفة

- يا لك من بنت رائعة

سألت بفرح:

- تحبه أنت يا أستاذ، ماذا تفضل بالضبط أن تسمع

أحن إلى خبز أمي

وقهوة أمي

ولمسة أمي

وبدأنا كلانا ندندن معاً

تدخلت أم علي بلوعة وقالت:

- حسرتي عليك يا بني . . الله يطمنك عليها . .

كادت الدمعة أن تفر من عيني، لو لم أكن في حضرة الناس الطيبين، الذين صاروا أهلاً حقيقيين بالنسبة لي.

****

ما أن ندخل المطعم، حتى تطلب من النادل أن يضع لها "قارئة الفنجان"، اشد على يدها بحنان.

- تعلمين أني أحب الأغنية, فهل تحبينها أنت؟

- لا بس عشان أفتح منافسك على العشا.

- أو تسدين نفسي.

- بتحكي جد؟ أخليه يغيرها . .

- أبداً، لكن لست أدري لماذا، أشعر أحياناً وكأن نزار إنما كتب هذه القصيدة عني ولي، وكأن العرافة أخطأت فقرأت فنجاني أنا وليس فنجانه هو . .

- يا عيني،

قالت بدلال ثم تابعت:

- بس بجد أنا بحب كل اللي أنت بتحبه .. بحب عبد الحليم وبالذات يا خلي القلب . .

- بتحبي تسمعي الأغنية وإلا تشوفيها . .

- آه الاثنين . . ميرفت كانت زي القمر، وعبد الحليم كان زي العسل . .

قلت بخبث:

- زينا كدة.

- يا ريت . . من تمّك لباب السما . . هوة احنا نطول يا عم . .

- أسما هو إنت شفت من كل الفيلم الأغنية بس .

قاطعتني قبل أن أسترسل:

- وحياتك بلاش، عارفة قصدك . . بعدين راح لنادية لطفي . . والله كنت أموتك . .

قلت حتى أضع حداً لانفعالها.

- قولي له، أن يضع يا خلي القلب . . عشان نعرف ناكل على الأقل.

أسرعت على الفور وطلبت من عامل المقهى أن يفعل.

- آه يا أسماء، لم تكوني معنا لتدركي أنها كانت كالغيمة الوحيدة التي حطت على سمائنا الكابي، حين عزت الرجولة على العرب جميعاً، ووحدها اخترقت الحصار وجاءت تشد أزر المدافعين عن كرامة الأمة العربية بأسرها، تناقلنا خبر وصولها بين المواقع، كما يتناقل الفقراء بشارة الغيث، كنا بحاجة إلى الرجال والمواقف، وحدها نادية لطفي قطعت المسافة بين التمني والجحيم، وكما لم يكن بمقدورنا التفوق على آلة حرب العدو، لم يكن بمقدورها بالطبع أن تحدث الانقلاب المستحيل وتجعل من القادة رجالاً، ينقلبون على أنفسهم بين يوم وليلة.

لكنها فعلت ما كان بمقدورها، كما فعلنا نحن ما كان بمقدورنا أن نفعله . . إلى أن خرجنا بشرف من عنق زجاجة الموت الذي أحاط بنا من كل جانب . .

كان فراقاً عاجلاً وجارحاً، حتى أنني لم أجد الوقت لأودع أهلي في الجنوب، ولألقي على فاطمة تحية الوداع، وعلى أهلها كلمات الثناء والامتنان . .

حين تسافر لا تلتفت وراءك يا بني، حتى يكتب لك القدر احتمال العودة، أو لأنها كانت لا تحتمل أن ترى غصة الفراق في حلقي أو مرارته في عيوني، ومن رحيلٍ لآخر في مسيرة التنقل التي لا تنتهي أبداً، أنفذ دائماً وصيتها، لكني بالرغم من ذلك لا أعود، وها هي السنوات تمضي رتيبة ومتتالية، دون أن أعود إلى مكان غادرته، أو إلى أحبة عرفتهم . . حتى تحولت كل الأماكن إلى ذكريات وكل الأحبة إلى أطياف، أحملهم على ظهري وبين جوانحي، وأواصل حياة متقطعة، أبدأها دائماً من جديد . .

- تعلم ينتابني الشعور الدائم بالرغبة في تحطيم هذه الحقائب، أراها دائماً جاهزة لترافقنا في أية لحظة، وفي كل مرة نرتب البيت، وما أن نشعر بألفة ما نحوه، حتى نغادر، أكاد أتردد في دق المسامير في الجدران، وفي ترتيب أصص نبات الظل، مخافة أن لا يتسع الوقت لنراها حين تزهر.

- نحن يا صديقي في حالٍ من الترحال الدائم، وقد بدأت مشاكلنا في مواجهتنا بحدة لم نعتدها من قبل، أتعلم لقد بدأ الأولاد يعانون من حال التنقل، من بلد لآخر، وفي كل مرة يواجهون منهاجاً دراسياً جديداً، أراقب النزق والتوتر ينتاب زوجتي، أفهم، لكنني أعجز عن أن أفعل ما يمكن أن يحل المشكلة .

ضحكت بأعماقي، أولاً لأنني فهمت أحد دوافعي للتردد في الزواج بالرغم من كل الحب والاقتناع الذي توفر لي عند أكثر من واحدة التقيت بها، وثانياً لأنني اكتشفت بأن الانخراط في العام، لم يحل مشاكل الذات الخاصة، بقدر ما أحاطها بمشاكله، على العكس تماماً مما كنا نعتقد، وننظّر ونقنع الآخرين . .

– لو أنك سمعت كلامي يا ولدي وسافرت للعمل في الخليج كأخيك، أو أنك انتظرت حتى تتخرج وتظفر بالشهادة الجامعية، أنا لا أقول أن لا تستجيب لنداء وطنك، ولكن عليك أن تعتدل في ذلك . . يعني من بعيد لبعيد، ليس بالضرورة أن تنخرط تماماً، ساهم بالدعم، بالتبرع، بالكتابة، لكن أن تكون عضواً في التنظيمات . . ثم عضواً قيادياً . . لو رآك الآن . . لقال لك بكل العتب، وبلهجة الذي يفوقك حكمة وتجربة، أرأيت، جاءك كلامي . .

التجربة لم تقفل دورتها، ولم تنه صيرورتها بعد . . ماذا تبقى لنا بعد أن ألقتها كف الاجتياح إلى هوامش الدنيا النائية، أماكن عزيزة على قلوبنا، حتى قبل أن نراها وترانا، وكم كنت أرغب في ارتيادها والسباحة فيها واستكشافها لأكثر من سبب، لكن أن نقيم فيها بهذه الطريقة، وكخيار لا خيار لنا سواه!

لا معنى للوقت هنا، كنا كالخفافيش ننتشر في النهار، ونتوزع في الليل، ننصت لصوت دبيب النملة، حواسنا بأكملها مستنفرة طوال الأربع والعشرين ساعة في اليوم، أما الآن فنقضي الوقت في الزيارات، لعب الورق، وفي رفقة النساء، البعض بدأ في السعي لاستثمار وقته، ليكون منتجاً، ولكن بطريقة فيها الكثير من المشاكل . .

غادرتنا عفوية البرية وتضامن الوحوش الذي كان سمة من سماتنا، لم نعد نعرف الكثير من أسرار بعضنا، نحن هنا لا نرتاد المدن مرة في الشهر، أو في الإجازات، لكننا نقطن فيها كل الوقت، ولغة الدولار هنا دارجة، حتى باتت تحيط بنا بالذات، ونحن صرنا كالبدوي الذي دخل المدينة للمرة الأولى، وكأننا غدونا في حالة من الثأر من تقشفنا السابق، في كل نواحي الحياة . .

هل هو الإحباط الجماعي، أم الكبت المزمن، أم كلاهما، لهو وعبث ونساء، وتجميع دولارات، والثورة أين الثورة، هل باتت شيئاً غادرناه وتركناه وراءنا، بحيث خرجنا نحن من الحصار، وظلت هي هناك محاصرة؟

– لماذا أنت مختلف، كثير من صديقاتي يعاشرن رجالاً من اخوانك، يغدقون عليهن الهدايا، ويعدوهن بالزواج، حتى وهم يعلمون، الرجال والنساء بأنهم يكذبون عليهن، لماذا أنت لست كذلك؟

– وهل كنت تحبيني بحق لو كنت غير ما أنا؟

– كنت أستغلك، أتباهى بك، أحقق بعض رغباتي، لكن أن أحبك فلا أعتقد، أنا أعلم بأني أحبك لأنك هكذا . . لكنني أسأل عن السبب الذي يجعلك مختلفاً؟

– أنا نفسي أسأل أيضاً، وأتساءل إلى متى سأظل صامداً، فلا تخترقني العدوى . .

قاطعتني بالقول:

– أنت تشك بنفسك؟

ما زلت أعتقد وسأظل بأن الإنسان لا يمكن أن يتجاوز شرطه الاجتماعي، ليس بالضرورة أن يندغم فيه، وأن يتساوى معه تماماً، لكن درجة اختلافه لابد أن تكون معقولة، حتى تكون محتملة . .

– لا أفهم بالضبط ما تقصد، لكن أحس بك تماماً، وأحبك كل يوم أكثر من حبي لك في اليوم الذي قبله .

– لقد بدأ زماننا الصعب يا مليكة، ولن يصمد فيه سوى من كان قد تزود بالمخزون الروحي الكافي لمواجهة الخواء القادم، الذي أراه كما أراك أمامي، في هذه اللحظة.

– أما زلت تخشى على نفسك من الموت . .

– الآن لا، ولكني أخشى عليها من الانتحار أو من الموت على طريقة أخرى، أن أموت كقيمة، أن يملأني الخواء أنا أيضاً . .

– وقضيتكم ماذا سيحل بها؟

– أن تحفظ ذاتك من الانهيار . . بات حلماً، تخيلي كم تصغر أحلامنا، وكم تتضاءل، والأنكى بأن هذا سيكون بمثابة حلمي الأخير، لأنني إن فقدته، فسوف تغادرني الأحلام تماماً، حتى لو عشت ألف عام.

حلمي الأخير، يا الهي، يا لبرودة ولفجائية الخاطر، الذي ورد بذهني، أيكون كحبي الأخير المستحيل، يتلازمان كلاهما، ويحققان نبوءة العرافة، فأقضي في الليلة الماطرة، أسقط كنجم من السماء، حين يرتطم بقسوة بالأرض الصلبة.

حين تفرغ الأحلام يا صديقي من رأسك سيفرغ قلبك من الحياة، وحينها لن تقو على منع الإغفاءة الأبدية من أن تحط فوق جفونك . . فتستحيل إلى تراب، تعود لنقطة البداية، لكن ليس لمعاودة الكرّة، تجربة الحياة مرة أخرى.

كأنها نكتة سمجة هذه الحياة، التي لا معنى لها، هي كذلك حين تكون لا معنى لها، لكنك تدرك معناها تماماً، لو كنت تتحكم بصيرورتها أو على الأقل بمفاتيح تحكمها بحياتك أنت . . ما دمنا نفقد هذه المفاتيح، مفتاحاً على اثر آخر، فإن حياتنا تتحول إلى أيام متتالية، تطوي بين ثناياها قدراً مبهماً، وعجزاً مقيماً . . وليس لك من خيار سوى الموت أو الانتحار . .

أبداً ما زلت أمتلك القدرة على مداعبة الحلم الأخير . . لن أتنازل عنه، لأني قررت أن أعيش حياتي حتى الرمق الأخير . . الله معك.

****

في ذلك الوقت لم نكن نشعر بالأيام تمر، كان الزمان بالنسبة لنا حالة من الحركة الدائبة المتصلة، على خط مستقيم، برنامج اليوم والغد واليوم الذي يليه مبرمج ومعد سلفاً، نلتقي بشكل جماعي ودوري، نخطط ما سنفعل سوية، وكانت الصفة الأهم التي يعرف بها أحدنا بأنه من الجماعة الفلانية أو العلانية، تنغلق عليها دائرتنا ونحلم بأن تتسع لتصبح بحجم الوطن، وكنا ندور في النقاش والحوار، إلى درجة العراك، الذي يستمر بالساعات، لنناقش الفروقات الصغيرة بين الأشياء والمسميات، نريد دولة علمانية أم ديمقراطية . نحن ضد الديمقراطية البرجوازية، التي هي في جوهرها ليبرالية طبقية، ونناضل من أجل الديمقراطية الشعبية، النضال من أجل التحرر الوطني، متلازم مع النضال الديمقراطي، ننتزع الدولة أم نحصل عليها من خلال التفاوض، نقيمها على أي جزء من الأرض يتم تحريره، أم عبر المؤتمر الدولي، البرنامج المرحلي، برنامج تحرري أم برنامج تسوية، نريد السلام أم التسوية . . الحرية أم العدالة.

لا صوت يعلو فوق صوت الرصاص، حين تحلق الطائرات فوق رؤوسنا أنواجهها بالكتب أم بالمضادات، من الذي يحرر فلسطين الوعي أم البندقية . . البندقية المسيسة، أم السياسة المسلحة. . الجدل لا ينتهي . . حتى لو اتفقنا على الهدف العام، ماذا عن الوسيلة، حرب التحرير الشعبية طويلة الأمد، أم حرب العصابات، وعلى أية طريقة، طريقة جيفارا أم ماوتسي تونغ . . علينا أن نبدع تجربتنا الخاصة . . ألن نستفيد من تجربة الفيتناميين، نحن بحاجة إلى نقطة ارتكاز . . حاولنا في الأردن، وها نحن نضطر إلى مغادرة لبنان، فهل سنعود إلى فلسطين من تونس؟ من يدري . . لكن أية عودة هذه التي ستكون من تونس؟

الجماهير مادة الثورة، هذه بالضبط معضلتنا نحفر الخنادق على خطوط التماس الحدودية، ثم نطلب من الناس أن تغادر مواقعها لتلتحق بالثورة، الثورة في واد والجماهير في واد آخر . . لابد من نقل مركز الثقل إلى الداخل، فماذا عن القيادات في الخارج، هل تضحي بامتيازاتها، أم أنها ستحوّل الداخل إلى أداة تحركها بالإيحاء الخارجي . . ليس هكذا فهناك التقارير، التي تتيح لها التعرف على تفاصيل الداخل . .

الشعب يجترح المعجزات، وحين صارت الثورة في عنق الزجاجة، تفجرت الانتفاضة، لكنها سرعان ما واجهت معضلة استمرارها، حيث لابد من تنظيمها، الدخول على خطها، أدخل معه الاجتهاد ومجمل التجربة السابقة، بكل إيجابياتها وسلبياتها . .
من منا قام بفعل المراجعة، بل قل من قام بتدوين ما حدث، نحن شعب بلا ذاكرة موثقة، الوثيقة تلغي الانفعال، ونحن قوم لا يمكننا أن نعيش دون أن نكون منفعلين ..

أدونيس يا صديقي كتب كثيراً حول الفرق بين أن تكون فاعلاً أو منفعلاً، بين الإبداع والاتباع، ثقافتك ترهقني وتضعني في دوامة لا مخرج منها . . أنت دائماً تلغي الواقع . . أنا . . على الأقل لا تتعامل معه باعتباره الطرف المقرر . . لم يصمد أحد مثلما صمدنا هل لك أن تنكر أهمية الظروف العربية والدولية في تحديد مصيرنا ومصير ثورتنا. وهل لك أنت أن تنكر دورنا الذاتي في تغيير هذه الظروف؟

لا يمكن للمبادرة الأمريكية أن تمر دون المشاركة الفلسطينية، موقفنا المتماسك يمكن أن يؤسس لموقف عربي متماسك، وأن يشكل رافعة له، والموقف العربي يرغم السياسة الأمريكية على مراجعة حساباتها . . نتفق ثم نختلف، نتفق حين نقر كلانا بأهمية الأمرين معاً، ونختلف على درجة التداخل بينهما، وفي حجم تأثير أحدهما على الآخر . . ثم ننتهي إلى أن كل واحد منا لم يتزحزح قيد أنملة عن موقف تنظيمه المركزي . .

– يقولون بأنك واقعي أو معتدل في اليسار، وأعلم أنك راديكالي أو يساري في اليمين، لكننا لا نكاد نتفق على موقف عملي واحد . .

– أكثر من ذلك أنت غير مقرر هناك، وأنا غير فاعل هنا، وعربة السياسة سائرة على درب كأن يداً تقبع في السماء هي التي تحركها وتحدد مسارها . .

– لا يا صديقي لا تضع الجميع في سلة واحدة، القدر الأكبر من المسؤولية إنما يقع على عاتق القيادة اليمينية. _ أوافق بأن القيادة تحملت المسؤولية دائماً، لكن المعارضة تتحمل قدراً من المسؤولية!

– ما هو هذا القدر أيها الفصيح؟

– دور المعارضة في كل النظم والمجتمعات هو أن تتحول إلى مراقب لأداء الجهات التنفيذية.

– نحن غير شكل، أم أنك نسيت، المعارضة تشارك في اللجنة التنفيذية، والرقابة لا تتم في حضن الشعب . . _ لا هذه مهاترة، أليس لدينا مجلس وطني، هو نواب الشعب . . ليس تماماً، فنحن لا نعرف الانتخابات العامة.

– خاصيتنا تكاد تكون قاتلة، السلطة والمعارضة تشكلتا معاً، الأولى ليست سلطة تماماً، والثانية ليست معارضة تماماً، ثم نحن لا نعرف التداول بينهما، فكأن الأولى تخصصت في دورها كمسؤول والثانية قد أدمنت دورها كشاهد.

– اسمع ليس المهم الآن أن نحمل المسؤولية لمن، ولا أن نحدد الفروقات بين هذا الخط وذاك، بل أن نناقش مآل ومصير المركب الفلسطيني برمته، بعد أن أوصلت أمواج البحر سفن أوذيسيوس إلى الشواطيء النائية، وبعد أن طال الطريق إلى ايثاكه، حتى تغنى به الشعراء، وعلا صوتهم هذه الأيام على صوت قادة الفصائل!

– مصيرنا منوط بالانتفاضة . . الانتفاضة ؟ قلت بمرارة، هل تتابع التقارير التي ترد عنها والتي هي أكثر صدقاً وحقيقة مما يتم الدفع به إلى وسائل الإعلام . .

_ أتابع، لكنها ما زالت مستمرة . .

– مستمرة؟ على أي نحو؟

– لماذا أنت دائماً، منذ عرفتك، هكذا كنت في النقاشات التي كانت تجري في الاتحاد، وهكذا كنت في المواقع، وحتى في عز الحصار، أنت لا تتغير، تعنى بالتفاصيل والهوامش، وتبتعد عن الاتجاه العام . .

– التفاصيل والهوامش، ربما كنت كما تقول، لكن من قال لك بأنها أقل أهمية، أم لأن من يرسم الصورة العامة، التي يريدها أن تكون مريحة له، يتقصد إقصاء التفاصيل، التي إن لم تكن تدل على الحقيقة المخفية للاتجاه العام، فإنها ستؤشر إلى ما سيحدث من تغيير عليه ..

– لذا فأنت دائماً تتبجح بقدرتك على النبوءة . .

_ إن انعدمت قدرتنا على التوقع، فقدنا قدرتنا على التأثير، وصرنا منفعلين، غير فاعلين في الأحداث التي تدور حولنا.

– أنا أقرأ الأحداث، هذه هي وظيفتي، وهذا هو دوري.

- وأنا أقرأ ما وراءها، وهذا هو دوري . .

- لذا فأنا من جماعة القيادة المتنفذة، كما يحلو لكم القول . .

- وأنا من جماعة المعارضة، كما تصفوننا عادة . .

- لكننا رغم الاختلاف في الرؤية والموقف، نظل أخوين . .

_ بل قل رغم الاختلاف المنهجي نبقى رفيقين . .

- وصديقين.

أطلق زفرة يأس، كأنه يقول، ليس منك فائدة، فيما أطلقت ضحكة كأنها تقول، لا عليك.

****

رسالة من القاهرة، يا للبشرى، إذاً ما زالوا يتذكرونني، غمرتني السعادة مجرد أن تناولت الورقة المطوية، وقبل أن أفض مظروفها، تساءلت لحظة عمن هو أصدق أصدقائي حتى يكون له قصب السبق، فيبادر إلى الاتصال بي . . لم تتردد الإجابة لحظة في القول بأنها أسماء . . لكن الرسالة . . ألم يكن من الأفضل أن يكون الاتصال عبر الهاتف، لماذا نحن دائماً آخر من ينضم إلى ركب العصر، ويستخدم التقنيات الحديثة . . لكن العذر سرعان ما قفز إلى خاطري . . في الحقيقة لقد أبدعوا في مجرد الوصول إلي . .

ثم فضضت الرسالة على الفور، آه هي إذاً ليست من أسماء، بل من أمجد . . ضحكت لذكاء النساء، ما كان يمكن لها أن تسأل عني من وراء ظهر زوجها، نعم . . نعم . . ما كان من السهل عليكم بالطبع التوصل إلى عنواني، أخمنتم بأن أكون مع المغادرين على ظهر البواخر، فأرسلتم إلى السفارة هنا . . لم يعزكم الذكاء إذاً ولا اتساع الحيلة، لا بأس عليكم . . ما زلتم أوفياء . . وأذكياء أيضاً . . كأن صوتها قد جاءني من البعيد، ليضيف جملته الاعتراضية المعتادة، التي طالما كانت تصر على إضافتها إلى حديثي، حينما كنت أتحدث عن رأيي فيها لها أو للأصدقاء بحضورها، ولتدلل لي على ذلك، كانت تحرص دائماً على لفت انتباهي بتعليقاتها اللماحة، أو جملها الملغزة . .

في عيد ميلاده الأول، تذكرناك، ورغبنا جداً في أن تكون بيننا، سنحدثه عنك، حينما يكبر – إذا لم يكتب أمجد الرسالة وحده – وسأطلعه على صورنا الجميلة، وإذا كانت أول كلماته، بابا وماما، فإنني أيضاً سأحرص أيضاً على أن يقول عمو أيضاً.

يا لك من امرأة رائعة، يا لك من حبيبة لا تعوض، لا تبالغ يا صديقي، هذا لأنكما لم تتزوجها، فبقيت هي في خيالك على الصورة المثلى، ولو صارت لك زوجة، لكنت سرعان ما مللتها، ورأيت فيها كل عيوب الدنيا . .

- حقاً يا فؤاد؟

- أنت الذي تقول وتنسى . .

- أنا قلت . . قلت ماذا؟

- أجبني قبل أن أخبرك، ألست شرقياً؟

- ليس تماماً، لكنني في الحقيقة شرقي مودرن، أو بمعنى أدق شرقي متطور، متحضر قليلاً، متنور .

- باختصار، وقبل أن تسترسل في مترادفاتك اللعينة، ألم تقل نحن الشرقيين، حين نعشق المرأة نضعها فوق رؤوسنا، وحين نتزوجها نضعها تحت أقدامنا . .

- أجل قلت

- إذاً؟

- إذاً، ماذا، أتحاول أن تقول . . لا . . لا أسماء هذه امرأة لا مثيل لها . .

- ربما، لكنها ظلت كذلك، لأنها بقيت حبيبة بالنسبة لك، هذا رأيي، وأنت إذا كان رأيك شئ آخر، "تضرب" "اذهب إلى الجحيم" . .

أسامة الصغير، أتم عامه الأول، من المؤكد أن يكون طفلاً رائعاً، لابد أنه أخذ عن أمه رقتها وحنانها، وعن أبيه طيبته وواقعيته، وهكذا سيكون خليطاً من الواقع والخيال . .

- وربما أخذ عنك شيئاً . .

- لماذا أنت تسكن في مخيلتي، فتعترض طريق أفكاري دائماً . .

- ألسنا صديقين حميمين يا صديقي؟

- بلى، لكن أرجوك أن "تحل" عني في مثل هذه الأوقات . . ضحك من أعماقه. وقال

- وإن فعلت، كنت أنت تفعل، ألست أنت الذي تطلبني كل الوقت، حيث لا معنى لأفكارك دوني؟

- يأخذ عني كيف؟ ليس لديه أدنى عامل وراثي مني.

_ بل قل ربما توحمت أمه على طيفك، الذي ربما كان ما غادر خيالها، حتى في اللحظة التي تلقت فيها نطفة الولد . .

- يا لأفكارك الجهنمية . . وحتى لو حدث ما تقول . . فليس بي ما يعيب . .

- بل بك ما سيشقى به الصبي طوال حياته، بك الجدية الزائدة، والمبدأية الحادة، فهل يمكن أن يعيش الولد زمانه بأفكارك ولا يحترق؟

- لم تنس عيد ميلادي يا حبيبي إذاً.

- أنسى وكيف يكون ذلك؟ كل عام وأنت حبيبتي . .

- كل عام ونحن معاً،

أكملت . . ثم قدمت لها هديتي . . فضت الورقة بلهفة، سرعان ما انطفأت وقالت في سرها متسائلة:

- كتاب . . شكراً.

- ديوان شعر نزار قباني، هنا ستقرأين "رسالة من تحت الماء" و"قارئة الفنجان"، و"رسالة من امرأة".

- بالطبع . . بالطبع هدية رائعة.

بالغت في اثارتها، حين دسست يدي في جيبي، لأخرج لها هدية أخرى، ما أن رأت المغلف الصغير في يدي، حتى كادت أن تطير من الفرح، وتساءلت:

- خاتم ذهب . .

- لا . .

- ألماس . .

- لا سلسلة، تقريباً، وحين فضت المغلف

- حلوة، بس إيه دي . .

- حنظلة

- مين ده؟

- ضمير ناجي العلي، الذي كرسه في رسوماته . .

- يعني أنا كنت عرفت الأولاني عشان أعرف الثاني ..

- فلسطينية دول يا أسامة؟

- وعرب كمان يا أسماء

- ودي فضة؟

- مش ده المهم، المهم الرمز يفضل معانا . .

- ح تفضل معايا طول العمر، ما دام هي هدية حبيبي.

****

- معقولة يعني يا سي أسامة ما تقدر تشوف أهلك، ولا حتى تتصل بهم، ولا حتى مكاتيب، يا عيني عليها أمك يكون قلبها محروق عليك، وأنت قلبك قاسي ما تطمنها وتريح بالها، ليش ما ترسل إليها إنك طيب وبخير، وتبعث لها في عنوانك . .

ضحكت بأسى لعدم إدراك مليكة حقيقة الأمر، وقلت لها ساخراً أو مثيراً لفضولها،

- والله فكرة، وايش رأيك كمان أبعث لها صورتك وآخذ رأيها فيك . .

كادت أن تطير للفكرة،

- تحكي بجد يا سي أسامة، والله كنت نمشي لها ونخليها تقنعك بي . .

- لماذا تعتقدين بأنني غير مقتنع بك، أنت ما زلت تصرين على أنني لم أحبك بالدرجة الكافية للزواج منك، لذا فأنت ما زلت تحاولين وتسعين إلى رفع درجة هذا الحب لدي، وفي الحقيقة أنا مقتنع بك، لكنك لا تريدين أنت أن تقتنعي بأن ظروفي هي التي تمنعني من ذلك.

- تعرف لو كنت تزوجت وأنجبت، كنت عرفت قديش أمك وأبوك ملتاعين على شوفتك..

- يا سلام فعلاً، أنت بدأت تخططين لإقناع أمي بالمشروع، الحمد لله أن الجغرافيا والسياسة أيضاً تحولان دون لقائكما، حينها إذا كنت قادراً على مواجهة إلحاحك الدؤوب، كيف يكون بمقدوري مواجهة "زن" ست الحبايب!

- احكيلي عن أهلك يا أسامة، أكيد انت بتفكر فيهم ومحتاجهم، كيف هم محتاجينك ومشتاقين لك . .

- أهلي؟

تساءلت بحرقة، كيف تجمد قلبي من اللوعة . .

- تعرفين في الأيام الأولى، كنت أراهم أمامي خيالات كل الوقت، أسمع أصواتهم وأتحدث إليهم، ثم شيئاً فشيئاً أخذتني اهتماماتي العامة من أحضانهم، وصار رفاقي وأصدقائي هم أهلي، حتى لا أكاد أصدق بأن اخوتي وأخواتي إذا ما رأيتهم أو عشت معهم في أيام قادمة سيكونون أقرب لي من فؤاد، أسماء، أمجد، فاطمة . . .

- لكن الأم والأب لا أحد يعوضهم،

- ربما

أجبت،

- لكن لست أدري لأي سبب أشعر أحياناً بأنك أنت بالذات، كأنك أهلٌ لي، وليس مجرد حبيبة، تماماً كما كان آل أبي علي، قبل أن ألتقيك . .

- يا لك من مراهق أزلي، متى ستدرك القدرة العجيبة للفلسطيني على التأقلم، بعد أن عجنته التجارب الصعبة، صار بمقدورك أن تلقيه من طائرة في صحراء قاحلة، وأن تعود إليه بعد عام، لتجد أنه قد صار في الجنة، وبأنه قد كوّن أسرة، وأصدقاء، وصار عضواً فاعلاً في المحيط الذي وجد نفسه فيه دون إرادته . .

وحتى لو ألقيته في البحر، ستجد أنه قد تحول إلى سمكة، وعاش مع أسراب الأسماك وعرائس البحر، لكنه لا يتحول أبداً إلى فك مفترس . . من يدري يا صديقي، فدوام الحال من المحال.

ما كنت في لحظة ذاكرة مندلقة، أذكر طهي أمي، حتى كنت أجد في اليوم التالي أم علي تدعوني إلى العشاء، فأرى فاطمة تحضر الطعام الشهي بنشاط واضح . . حتى أمي كان يمكن أن تتعلل بسببٍ ما لكن هذه "الأم علي"، مثل هؤلاء الناس لا يعززون قدرتنا على الصمود في وجه الوحش وحسب، بل ويجعلوننا على استعداد لمواجهة الموت بقلوب عارية ..

- سلامة قلبك يا أخ

- قلبي؟ لا أخشى في هذه الدنيا شيئاً، بقدر ما أخشى هذا القلب، الذي يبدو لي ليناً أكثر مما يجب، رغم كل ما امتلأ به عقلي من فكر صارم، يجعل مني لا أقوى على احتمال رؤية دجاجة مذبوحة، ثم هو لا يكف عن حب الناس . .

- خاصة النساء يا صديقي

- يا لك من مناكف، وماذا في ذلك . . ثم أليس الأمر الطبيعي أن يشعر الرجل، مطلق الرجل , بالانجذاب إلى المرأة – مطلق المرأة ، فما بالك حين أجد نفسي أمام امرأة استثنائية..

- كل اللواتي أحببت كن استثنائيات؟ يا لك من مبالغ

- في اللحظة المحددة، كانت المرأة التي أحب استثنائية بالنسبة لي، ليس بالضرورة أن تكون كذلك بالنسبة للآخرين . . ثم ما شأنك أنت بي، حتى أمورنا الخاصة، وحتى مشاعرنا تتدخلون بها، وتثيرون حولها خلافاً.

- وجعك في قلبك يا بني، ومقتلك في تلك النقطة . .

فحبيبة قلبك يا ولدي نائمة في قصر مرصود..

من يدخل حجرتها، من يطلب يدها

من يدنو من سور حديقتها، من حاول فك ضفائرها يا ولدي مفقود ..

انتفض للصوت العذب وللكلام المفعم بالنبوءة، وارتعش قلبه الطري، كعصفور صغير.

- إنت بتموت فيّ يا أسامة زي ما بموت فيك؟

- لا يا ستي أنا بعيش فيك، مش كدة أحسن.

يا لنا من بشر نحن الشرقيين، الموت أسهل عندنا كثيراً من الحياة، نحن بالشكل العام متعففون، روحانيون، حتى أننا نحياها طلباً للموت . . أما أنا فإنني لا أكره شيئاً في الدنيا، بقدر ما أكره هذا الموت اللعين، الذي لا توجد هناك وصفة لقهره . . بلا توجد، ماذا؟ الخلود، وماذا ينفعك اهتمام الناس بأفعالك بعد موتك ..

يا للمفارقة، حتى أننا لا نعرف قيمة البعض منا، إلاّ بعد أن يموتوا . .

- إن كان قلبك نقطة ضعفك، فإن عقلك مصدر تعبك . .
- لماذا لا تقول بأن قلبي مصدر قوتي، وعقلي منبع قدرتي . .
- تضحكني دائماً يا رجل.
- هل تحبين الأطفال أيتها السمسمة الصغيرة؟
- أحبهم، وده سؤال، إن كنت أحبك كل هذا الحب، فلابد أن أحب أولادي منك ..
- أولادك مني، سيكونون صغاراً مثلك، طيبين مثلي، وربما كانت رؤوسهم أكبر من أجسادهم . .
- فال الله ولا فالك . .
- هذا إن حصل
- قصدك إيه . .
- قصدي لما نشوف الصبي، بنصلي ع النبي . .
- تعرف يا سمسم، كثير بفكر فيك، وبخاف ..
- كيف يعني؟
- خايفة لتكون بتسرح بيّ
- أعوذ بالله، ماذا تقولين أيتها الحمقاء . .
- أمال معناته إيه بنحب بعض، ومش بتفكر بالزواج . .
- بالعكس أنا بفكر كويس قوي، بس أنا شايف أنه لما نحب بنحب بقلبنا، ولما ننوي نتزوج لازم نفكر بعقلنا ..
- عقلنا؟ ده هلكتني بتفكيرك الصعب ده . .

أسامة، بالمناسبة ماما عايزة تتعرف عليك . .

****

- أليس لك أهل يا مليكة . .

- بلى لي، لكنني لا أراهم إلا كل فترة وفترة . . زيك تمام . .

- لا أنا قد لا أراهم لوقت طويل، وحتى قد لا أراهم أبداً . . أنا ظروفي تحول دون ذلك، لكن أنت لماذا لا تعيشين معهم . .

- وأنا ظروفي كمان، تعرف كدة أحسن . . هل تعتقد بأننا يمكن أن نحصل على حريتنا إذا كنا وسط أهلنا؟

- لا أعتقد . .

- تخيل لو أني كنت أعيش معهم، هل كنت أقوى على ممارسة حريتي معك؟

- أو مع غيري . .

- لو كان واحد غيرك كنت أدبحه . .

- أنا آسف يا مليكة، ما كانش قصدي . .

- أنت عارف أني من يوم ما عرفتك، ما عرفتش حد تاني ..

- إخلاص يعني، وإلا طمع؟

- طمع يا سيدي

****

- ماما مبسوطة منك كثير، وارتاحت لك قوي، تعرف حكت لبابا عن أخلاقك وعن ثقافتك، واطمنوا هم الاثنين علي معاك . .

- طيب يا ستي وإيه ثاني . .

- تعرف سألوني عنك أسئلة ما عرفتش أجاوب عليها . .

- زي إيه ..

- يعني أهلك، وضعهم إيه، ساكنين وعايشين إزاي . .

- وهم مالهم؟

- مالهم ازاي، مش لازم يطمنوا على بنتهم، وإلا أنت ح تعيش معانا هنا . .

- أعيش معاكوا كيف يعني .. اسمعي يا اسماء ، أهلي وضعهم الاجتماعي ممتاز وحالتهم المادية فوق الريح، بس أنا ما ليش خص فيهم، أنا شاقق طريقي لحالي، ولو كان بايدي كنت وزعت كل أملاكهم وأموالهم على الفقراء والمحتاجين .. انتابها غضب لم أعهده فيها:

– انت بتقول إيه، انت مجنون . . انت لازم مش في وعيك: حد يتبرأ من أهله، خاصة لما يكونوا محترمين زي ما بتقول؟

– كل أهل الناس محترمين . . بس أنا أهلي بالنسبة لي، أب وأم واخوة وأخوات، وليسوا أملاكاً أو عقارات، أمارس قناعاتي، حتى لو كان أبي سيحجب عني حصتي من ميراثه، وحتى أنني لا أفكر فيها، لا الآن ولا بعد عمرٍ طويل . .

كان الموقف صعباً، ولم يحدث له شبيه بيني وبين أسماء، من قبل، لدرجة أنني غير قادر على سرد تفاصيله الآن، وكان سبباً في أول خصام حقيقي بيني وبينها، وكان الأخير أيضاً . .

يا ليتك كنت قد أجلت الخلاف قليلاً أيتها الرائعة، يا فراشتي الحلوة، أعذرني يا صديقي، فالذاكرة ساكنة، وأنا حين أتحدث عنها فإنما أقصد تلك الفتاة التي لم تتجاوز الاثنين وعشرين ربيعاً، وهي غير المرأة التي هي الآن زوجتك . . نعم يا عزيزتي الذاكرة كجهاز الحاسوب الذي سينتشر بعد سنوات، وسيفرض علينا انقلاباً لم يكن بحسبان أحد، أو بمعنى أدق لم يكن وراداً في حساباتنا، ونحن نرسم صورتنا الوردية عن المستقبل ، إن لم نقم بتغذيتها بالوقائع الطازجة توقفت عند حدود آخر صورة للواقع، للناس وللأشياء، في خيالنا، أنا مثلاً الآن أتخيلك زوجة وأم، وأراك امرأة أخرى، غير التي عرفتها.

أقول لو أنك أجلت خلافنا اللعين، الذي حرمني من أن أسافر ممتلئاً بأمنياتك الطيبة ووعودك ودعواتك لي بالسلامة، كان ضرورياً لي أن أقبض على آخر خلجة في قلبك نحوي. لكنه ربما كان القدر، كما كنت تصرين دائماً على القول.. القدر الذي كنت تخشين أن يفرق بيننا، أما أنا فكنت أقول بأن أقدارنا إنما نصنعها نحن بأيدينا، وأن قوة الجهل والعجز هي القوة السالبة التي تتحكم بنا، وأننا بقدر ما نحيط بقوانين الأشياء حولنا، بقدر ما نتحكم بمصائرنا، فكانت النتيجة أننا بالغنا في تقدير قدرتنا، وأن القوى الطاغية كانت أقوى منا جميعاً بخلافاتنا واتجاهاتنا.

عفويتك، كم كانت ضرورية لصرامتي، لو كنت أصغيت لها قليلاً، لكني ها أناذا أحاكم الأشياء الآن، وأرتكب خطأ آخر، ما كان بالطبع بمقدورنا أن نرى أشياءنا إلاّ في شروطها تلك، وما كان يمكن أن يكون الحال بأفضل مما صار عليه..

وها أنا أواجه أقداري، وأفقد قدرتي على التحكم بضرورتها، شيئاً فشيئاً، وكأن العرافة كانت أقرب إلى الصواب من ماركس وانجلز ولينين، وكل المبشرين العظام، الذين أرسوا دعائم وعينا ورؤيتنا، فهل

انطوت صفحتنا مع انهيار جدار برلين، يا له من جحيم فظيع في انتظارنا إذاً، الموت يربض وراء أبوابنا..

- لم كل هذا التشاؤم يا عزيزي، دع الخلق للخالق، أنت بحاجة إلى أن تنسى، وسكبت في الكأس ما اعتقدت بأنه قادر على أن يريحني قليلاً...

حتى هذا يا مليكة كنت أعتبره في يومٍ مضى فعلاً منافياً للمنطق..

- أنا عازماك يوم الجمعة على رحلة إلى شاطئ البحر، سنذهب إلى مكان أجمل من الجنة..

كانت الرحلة في الخيال الخصب أجمل دائماً بالنسبة لي من تجولات الطبيعة..

يوم الجمعة، لو تعلمين يا مليكة، بما يدور حولي، وما يمور في داخلي، تتصادم المتناقضات، حتى تكاد أن تحطمنّي، من كانوا يتقاسمون علبة السردين، ولفة السجائر، يتنافسون الآن على جمع الدولارات، وعلى اقتحام معاقل النساء، وصاروا أكثر طراوة من الحليب، بعد أن كانوا.. كانوا.. سبحان من كان..

- انتصار؟ ألم يجدوا سواها ليعرضوا عليّ الزواج منها.. أو حتى أنهم لم يجدوا سواي ليتزوجها..

- اهدأ يا صديقي. وناقش الأمر بروية، أنت هل تقول في المرأة شيئاً معيباً؟

- أبداً..

- أو لم تكن دائماً محط إعجابك وتقديرك..

- بلى، لكن ليس بالشكل الذي يكون بين رجل يفكر بالزواج من امرأة..

- ألم تتولاك برعايتها واهتمامها، منذ التحقت بالقواعد، وطوال الاجتياح، ثم بقيت كذلك حتى هذه اللحظة.

- كل هذا صحيح, وأكثر كانت بالنسبة لي أماً أو أختاً كبيرة، صديقة وفيّة، وحاضنة حمتني من كل الأذى الذي كان يمكن أن يلحق بي، وهي بالنسبة لي امرأة عظيمة للغاية، من أشجع النساء وأقواهن، لكنني لم أفكر بها لحظة واحدة، ولا في أي وقت كأنثى، يا الهي إن هذا يصيبني بالغثيان..

لماذا لا تقوى على استيعاب وجود صداقة حقيقية بين رجل وامرأة، كتلك التي تنشأ بين الرجال فيما بينهم , وبين النساء والفتيات فيما بينهن؟

- ربما أنت لم تفكر بها كذلك، حين كانت متزوجة..

- أبداً لأن شعوري تجاهها لم يتغير بعد استشهاد زوجها..

- ربما لأنها تعاملت معك بمنطق الحماية.. وأنت في أعماقك ما زلت الرجل الشرقي، الذي حين فكر بأنثاه فانه يجدها من بين من هن اضعف منه، حتى يبقي على رجولته الشرقية..

- بالله عليك لا تثر حنقي وغضبي بهذا الشكل.

- طيب يا أخي، أسحب كلامي هذا، لكن ألا تعتقد بأنها بحاجة الآن إلى رجل يقدرها، يستحقها وتستحقه، وأما زلت تعتقد بأنك رجل استثنائي لن تجد أفضل منه.. على الأقل من باب ردّ الجميل..

- ها.. ربما.

- انتصار يا صديقي ستعوضك كل الحنان الذي طالما افتقدته..

- لكنها ليست وحدها..

- تقصد الولد والبنت، أليس ياسر و دلال هما اللذان طالما أحببتهما، كما يمكن أن يحب الرجل أبناءه..

- بلى..

- إذاً أين هي المشكلة..

- المشكلة أنني غير قادر على استيعاب الأمر برّمته..

- ستستوعبه يا صديقي، ستستوعبه صدقني..

- على رأيك من يفكر في أحوالنا هذه الأيام، هل كان يمكنه أن يصدّق كل هذا، لو فكر به قبل أعوام قليلة..

****

شعرت بارتباك حقيقي، ربما كان الأول من نوعه، الذي أشعر به وأنا أجلس قبالة المدام. التي قُدر لي أن لا تكون كذلك، منذ الآن، كان شعوري مركّباً, بل قل مزيجاً من مشاعر متباينة أو متناقضة، فهذه المرة الأولى التي أجلس فيها قبالة انتصار بتكلف، فرضته أجواء لقائنا كرجل وامرأة، كذكر وأنثى، معنيان بمناقشة أمر خاص جداً بينهما، لم ارتبك هكذا مع أية امرأة أخرى، حتى أولئك اللواتي ربطتني بهن علاقات خاصة، كانت العفوية إطار لقاءاتي مع أسماء، وكانت الصراحة هي الجو لذي تتم فيه لقاءاتي مع مليكة، حتى فاطمة كنت أتعامل معها بحنو أبوي، لكن هذه الانتصار، التي طالما كان الاحترام والتقدير عنوان علاقتنا، يفترض بي أن أفكر بها على نحوٍ لم أفكر به، وحتى أنني في أعماقي لا ارغب فيه..

لو أنني تلقيت أمراً من (أسماء) يحلني من ارتباطي بها، كما فعلت أنا من قبل معها؟ ومن قال لك بأنها قد اتخذت قرارها بناءً على اقتراحك لها؟ ماذا تقصد أيها اللعين.. لا شيء، لكن ما أعرفه هو أنها أعطت موافقتها لأمجد، بعد أن طوت صفحتك، وقبل أن تتلقى مكتوبك إياه؟

قبضت بكلتا يدي على ياقته،

- من قال لك هذا، أنت تكذب، بل أنت تدس لي السم في الدسم، لأنك أنت أيضاً أخذت على عاتقك مهمة إقناعي بأمر "المدام" ..

- لا يا صديقي، الحقيقة غير ذلك..

قال بهدوء من يثق بصحة ما لديه من معلومات..

- لو كان الأمر غير ذلك، لماذا أخفيت عني الأمر، وانتظرت هذه اللحظة، منتهزا فرصة أن يدفعني رد الفعل على الموافقة بالزواج من أم ياسر..

- اهدأ أولاً، ثم لا تستمر في خنقي هكذا ثانياً، لأنني وان كنت صديقك، يمكن لكرامتي أن تثور وأبادلك العراك..

- كرامتك، وهل تبقت لديك..

- إياك والغلط، نحن جميعاً في الهوا سوا.. وإن كنا بدرجات مختلفة..

ثم أنت ستوافق اليوم أو غداً، وستجد العذر الذي يناسب كبرياءك ويتوافق مع أفكارك وحتى خيالاتك..

أخرجت صديقي من رأسي، قبل أن يتفاقم حنقي، وتطلعت إلى انتصار، كانت امرأة ناضجة، تضج أنوثة، اعتنت بهندامها وزينتها ومكياجها بثقة وبوعي، رأيتها امرأة تثير ليس الشهوة بالتحديد، ولكن تملأني اعتزازاً باعتباري مرافقها، أرى نظرات الناس من حولنا، التي تقول بالانطباع، الذي لا شك فيه بأنهم ينظرون إلى امرأة ذات مستوى..

كأنك متحدّرة من عائلة أرستقراطية، الله يرحم المخيم.. كنت راعي وطلّعني دراعي..

- يا لك من سافل كيف تفكر بالمرأة التي ستصبح زوجتك على هذا النحو،

- لم تصبح كذلك بعد..

- المسألة إذاً مسألة وقت..

- خذ وقتك يا صاحِ، حتى أنك لم تقل بلهجة حاسمة بأنها لن تكون كذلك أبداً..

- شو يا أسامة؟ ألا أعجبك..

- تعجبيني؟ بلى.. أنت تعجبيني كل الوقت..

- صحيح؟

سألت بدلال..

- ليس على النحو الذي ذهب به خيالك، أقصد سابقاً.. لكنك اليوم.. ماذا أقول:

- "أبهة" عظمة على عظمة يا ست، تذكرت رد فعل المصريين، وكتمته في داخلي.

- حقاً ما رأيك في هندامي؟ هل اللون الفيروزي يعجبك؟ لون قميصي هل هو متناسب مع "التايير"؟

- تطلعت إلى القميص، وكنت أراه لأول مرة، من بين فتحتي الجاكيت، كان الصدر نافراً، كأنه يتطلع إلى عراكي..

- ما رأيك بمكياجي؟

- يا إلهي ما أروع رائحة عطرك..اسمعي الصراحة أنت اليوم امرأة متميزة يا أم ياسر..

- ماذا أم ياسر؟ لن أحتمل منك اليوم سوى أن تخاطبني باسمي المجرد، بل ما رأيك لو قلت لي "نانا" ..

- نعم..نعم نانا.. ما احنا ضاعت لحانا، قلت هذه الأخيرة في سرّي..

أخذتني انتصار تماماً، حين وضعت قطعة الفريز التي كانت على وجه قطعة "الجاتوه" في فمي، وأخذت تدلّلني، لم يسبق أن دللتني امرأة هكذا ولا حتى أمي.. كدت أن أقفز من مكاني، وأطوقها بذراعي..

- أنك تدلليني انتصار وأنا ضعيف أمام اهتمام المرأة..

- سأدللك دائماً وأبداً..

- لم تقل لي رأيك باختصار ووضوح..

- رأيي؟ بهذه السرعة؟

- لا أبداً خذ وقتك.. ولكن هل تنوي أن تتعامل بجدية مع الأمر..

- بالطبع..

- من الضروري أسامة، فأنت تعرف بأن الجميع حولنا ينتظرون أن نعلن لهم موقفنا النهائي.

- أعلم، لكن اسمعي لي شرط أساسي.

- أشرط كما تشاء..

- لن نقيم حفلاً من أي شكل، ولا حتى على أي مستوى، لا ضيق، ولا على مستوى الأصدقاء أو خلافه..

- لماذا يا عزيزي؟

- هكذا لا أقوى على أن أجد نسي محط لهو الآخرين في حفل يخصني .. نحتفل أنا وأنت على طريقتنا..

- أوافق ونرتب هذا الأمر لاحقاً أنا وأنت...

تشجعت وقلت:

- شيء آخر أريدك ان توافقيني عليه , لا يمكنني أن أنتقل إلى مسكنك، ماذا سيقول عني الناس، زوج المدام..

- فكّر يا أسامة، أنا أوافق على كل ما من شأنه أن يريحك..لكن فكر، أنا بإمكاني أن أنتقل إليك، حتى لو في خيمة، ولكن ماذا عن الأولاد، بيتك لا يتسع لنا جميعاً، أم أنك تقصد أن نبقى كل في بيته، ونرتب لقاءاتنا، كما العشاق في الخفاء؟

هل تريد أن نتزوج بالسر، وليس هناك ما يمنعنا من الإعلان؟

- لم اقصد ذلك..

واصلت هجوم المنطق علّي وقالت، أم أنك في حقيقتك ما زلت رجلاً شرقياً، ترفض التنازل عن تفوق الزوج وحقوقه الشرعية، حتى أنك تتردد في الزواج بي، لأنني لست بكراً، وحتى أنني أم لولدين أو ربما لأنني _ تقريبا _ أنا التي خطبتك وطلبت يدك.

وقبل أن ألملم أشتاتي بالرد، تابعت القول:

- ألم تكن مثل هذه الأشياء دائماً مثار سخريتك ورفضك.. ربما كان انعدام فارق السن بيننا أيضاً حائلاً أو أنك كنت تفضل فتاة صغيرة، تربيها على يديك، كما الآخرون، وضحكت من أعماقها ساخرة..

- لا يا عزيزتي.. ليس كل ما قلته صحيحاً، حتى أنني مقتنع الآن بك، ومستعد على الفور للزواج منك، لكن لن أوافق على التنازل عما سبق واشترطت عليك , قبل قليل..

بخبث قالت،

- وأنا موافقة, هيا بنا.

الليلة الأولى، كانت ليلة الحل الوسط، لم نقضها في بيتي ولا في بيتها ولكن في فندق فاخر، ومنذ ذلك اليوم، صارت انتصار زوجتي، وصرت زوجها، البعض ينسبها لي، والبعض ينسبني لها.. لا بأس، هذا يحقق توازناً وندية بين الطرفين اللذين هما أنا وهي، طرف الامتياز الواقعي الملموس، وطرف الامتياز المعنوي، الذي سيتضاءل شيئاً فشيئاً، ولن تغير من هذه الحقيقة، حالة العودة إلى الوطن، التي جاءت إلينا، على صورة أبهى من الحلم، وأجمل من الخيال، في لحظة مباغتة، بعد أن اعتقدنا بأن المنفى في شمال أفريقيا سيكون محطتنا الأخيرة.

****

- غيرتك غير معقولة يا انتصار، بل باتت غير محتملة، كنّا أصدقاء جداً، قبل أن نتزوج، وكنت تعرفين كل علاقاتي السابقة، وتعلمين أيضاً أنني شاعر، أمتلك قلباً رهيفاً وخيالاً جامحاً، مفتوح على حب الناس جميعاً، ويرف قلبي كعصفور حين أرى فتاة جميلة، ويذوب حين يجدها ودودة...

قاطعتني، ولم تحتمل أن أسترسل، بعد أن بردت حدتي قليلاً:

- آه حبيبي..بس أنا غير شكل أنت لي وحدي، أنا لست شاعرة ولا عاشقة لأحدٍ سواك، وأخاف عليك من الهواء الطاير، ولا أحتمل أن تفكر.. بل مجرد أن يخطر ببالك اشتهاء امرأة سواي..

- لو تعلمين، أنت زوجتي وستبقين كذلك، أما حبيبتي التي لم ألتقيها بعد..

- ها وين سرحت، إياك تكون سرحت مع واحدة ثانية..

- يا ستي لا ثانية ولا ثالثة.

ثم تناولت مني الصحيفة، وفتحت على صفحتها المفضلة وبدأت تقرأ.. ثم فجأة:

- أسامة.. اسمع.. أنت مقبل على سفر، ستذهب إليه بهمة ونشاط..

- برج من هذا ..

- برج الحوت..

- الحوت أم الأسد، أقصد لماذا قرأته..

- ايش جرالك حبيبي هذا برجك..

- برجي أنا؟ يعني أنا سأسافر.. والله فكرة، فقد بدأت أشعر بملل هائل، وأنا فعلاً بحاجة إلى تغيير جو..

- أجري على أجرك..تسافر لحالك (يوك) .. يفتح الله...

- إذاً الغي الفكرة، واقترحي على المنجمّ الصحفي أن يغير ما كتبه اليوم بالقول غداً بأنني قد ألغيت فكرة السفر.

- اسمع.. اسمع، في انتظارك تغيير شامل في ظروف حياتك، ستحققين كل ما كنت تتمنين، مال في الطريق إليك..

- هذا برجك أليس كذلك..

- صحيح، شو عرّفك..

- لقد تحدث معك الأخ بصيغة المؤنث وكأنه قد كتبه لك خصيصاً...

اسمعي ممكن أسألك سؤال:

- كم برجاً يكتبون عنها في الصحيفة..

- (12) ..

- والصحيفة مطبوعة لمن؟

- للناس..

- نعم أقصد أليس لملايين البشر؟

- بلى

- إذاً؟

- إذاّ ماذا؟

- هل يعقل بأن الملايين لهم اثناعشر طالعاً فقط، أي أن هناك مئات الآلاف مثلي مقبلون على السفر، ومثلهم مثلك في انتظارهم تغيير شامل..

- الأمر يا حبيبي ليس هكذا، بل هناك تفاصيل..

- يا سلام ومن أجل متابعة التفاصيل لا بد أن نعود إلى العرافة، ندفع لها مبلغاً وقدره، حتى تمنحنا الطمأنينة، تجاه ما ينتظرنا من وقائع..

- التفاهم في هذه الأمور صعب معك.. عقلك مغلق وعنيد.. ليس مهماً بالنسبة لي، المهم قلبك أن يكون مفتوحاً على شخصي أنا وحدي..

- أنا يا انتصار، قلت بأسى.. أنا عقلي مغلق.. قد يكون عنيداً، لكن ليس مغلقاً على الإطلاق، بل منفتح على الآخر.. كقلبي أيضاً، الذي سيبقى مفتوحاً.. ولكن ليس لك وحدك..

قلت هذه الجملة الأخيرة في سّري.. بينما تركت هي لي الصحيفة وذهبت لإعداد القهوة.

****

داهمتني الذاكرة دفعة واحدة، والرغبة العميقة في السير، حتى أنني تجولت في كل أنحاء المدينة التي أخذت مني سنيناً حتى ألفتها، بعد أن تعرفت عليها جيداً، أحقاً أن أسماء لم تنتظر رسالتي الأخيرة، وقررت بمفردها الزواج من أمجد، دون أن أنصحها بذلك، هذا حقها يا أخي..

- أعلم.. لكنني ما زلت أشعر ببعض الضيق..
- هذا يعني بأنها قد طوت صفحتي، قبل أن تحسم أمرها مع أمجد..
- وهذا حقها أيضاً..
- ليس تماماً، فما كان بيننا من حقنا نحن الاثنين، نقرره معاً، ولا يحق لأحدنا أن يفعل دون الآخر..
- عدت لطريقتك في التفكير إياها.. لماذا لم تأخذ رأيها حين قررت، بسرعة البرق، ومنفرداً، حتى دون أن تعلمها بالأمر، وذهبت لمواجهة الاجتياح، وأنت لا تعلم ماذا سيكون عليه مصيرك.. بل حتى حياتك ذاتها.. التي تخصها أيضاً.. ها؟

****

ليس بعيداً من هنا، بيت مليكة.. يا الهي كم أشعر بالاشتياق إلى هذه المرأة الرائعة .. رائعة، حينما كنت استلقي بجوارها.. لم أكن أشعر بهذا.. حقاً.. أننا لا ندرك قيمة وأهمية بعض النساء في حياتنا إلاّ حين نفقدهن.. وهل فقدتك يا مليكة حقاً.. الرغبة في رؤيتها والذهاب إليها، تجتاحني.. ماذا ستقول انتصار..

وما شأنها، وهل ستفرض علي هذه الزوجة حظراً، وتمنعني عن أصدقائي من النساء، لو كان الأمر هكذا لذهبت إلى مليكة بالضد من انتصار، لكن كيف ستستقبلني مليكة، ربما سأجدها مكسورة القلب ويائسة، بعد أن أجهضت لها حلمها بي.. لا لن أقوى على رؤيتها على هذا النحو.. تنتابني الرغبة الآن في أن ألقي بنفسي في البحر، أذهب إليه.. المكان في منتهى الروعة، كل هذه المدينة، بل هذه البلاد في منتهى الروعة، ليس لأنها احتضنتنا كأم رؤوم وحسب، ولكن لأنها جميلة حقاً، قبل أن ترانا.. ماذا حلّ بي، كأنني أودّع المدينة، أتفقدها شبراً شبراً، كأنني أراها للمرة الأخيرة.. ما هذا الهاجس اللعين، كأننا اعتدنا على فقد الأشياء الجميلة، بالذات حين نعتادها.. لا لن أغادر هذه البلاد، ولو إلى الجنة..

- ولا حتى إلى الوطن؟

- الوطن؟ كيف يكون ذلك، ومن يحلم به..

- المفاوضات يا صديقي قد تفضي إليه..

ضحكت من أعماقي..

- المفاوضات؟ لا يعقل يا عزيزي، أيمكن أن تحقق هذه المساجلات عديمة الجدوى، ما عجزت عنه الكمائن والدوريات والرصاص، وحتى الانتفاضة..

- لماذا أنت تقطع أوصال فعلنا هكذا، بل كل ما قلت يفتح الطريق إلى الوطن..

الأجساد الطازجة على شاطئ البحر، تثير حفيظتي، بل تثير غريزتي، كل هذه النساء محرمات عليك، ولم يعد لك سوى الجسد "النص عمر" ، هذا الذي أنهكته آثار السنين المتعاقبة، والذي حين يتعرى

أمامك، لا يعود من قيمة لبهرجة الثياب، ولا من فائدة للمكياج غالي الثمن على الوجه.. أية حماقة ارتكبتها يا رجل بحق نفسك.. تنهدت من أعماقي، لكنك من دونها تكون صعلوكاً غير قادر حتى على التفكير بأي واحدة من هؤلاء..

أما الآن فأنت أيضاً قد بدأ العز يظهر عليك.. المركبة الفاخرة، الثياب الأنيقة،المكانة، النقود.. وحتى العلاقات والنفوذ.

بعد وقت وجدتني أكاد أن أسقط من طولي، من شدة التعب والجوع، لكن روحي وأعماقي قد هدأتا قليلاً، فاستلقيت إلى كرسي خشبي في حديقة عامة، اشتريت من أحد الباعة المتجولين طعاماً، التهمته بشهية، ثم غفوت في المكان العام.

حين صحوت كانت الشمس قد غربت واصلت سيري دون وجهة محدّدة، وحين وجدت نفسي أمام حانة، لم أتردد لحظة في دفع الباب والدخول، كنت أجلس وحدي، أتناول الشراب بنهم، هذا ما أذكره.. لأنني بعد ذلك، لم أذكر شيئاً إلاّ صبيحة اليوم التالي، حين وجدتني في فراشي، وانتصار تقدم لي القهوة.

كان الصداع يملأ رأسي والارتخاء متغلغلاً في مفاصلي، وكافة أنحاء جسدي، كانت بالملابس الداخلية تماماً مثل فتيات الشاطئ، المقارنة التي فرضت على مخيلتي للحظة لم تكن في صالحها أبداً، الصدر كبير في ترهل، والمؤخرة مكتنزة في شيخوخة، والبطن قريب من التكرش.. ربما بسب الحمل والإنجاب.. أخافتني الفكرة التي وثبت إلى رأسي، فكرة الزواج بحد ذاتها لم تكن تروق لي، فكيف سيكون الحال مع أولادٍ أيضاً..

- هل تفكرين نانا؟

وعلى مضض، قلت:

- حبيبتي، في أن تنجبي مجدداً..

- أنا لماذا، أنا أريد أن استمتع ببقية حياتي معك، أيها الشاب الوسيم الجميل، الحبيب، فلماذا أنغص حياتي بأولادٍ آخرين، ثم أنا لدي ولد مثل الشمس، وبنت مثل القمر..

- صحيح، ولكن ماذا عني أنا.. أنا في أعماقي لا أريد أولاداً يحدّون من حريتي في الحياة، لكن وجود انتصار فعل ذلك، كما أنه إذا كان أنا من حقي أن أقرر شأناً خاصاً بي، فإن هذا لا يعني أن تقرر هي عني.. وماذا عني يا نانا..

- أوه أسامة، أولادي هم أولادك.. ألم يكونوا كذلك دائماً..

- نعم.. نعم.. معك حق..

إنني أقوم بدور الزوج التابع، على أكمل وجه، ربما كنت الرجل الشرقي الوحيد، في هذه الدنيا بل ربما عبر التاريخ، الذي يقبل مثل هذه المكانة.. يا رجل أنت مناضل حقيقي وصاحب قيم حقيقية، أنت تزوجت أرملة شهيد، وقهرت الموت الذي أراده الأعداء لنا، وصرت بمقام الشهيد، الذي طالما قدرته واحترمته وأحببته.. زوجاً وأباً، وحتى قائداً تقوم بمهامه..

- أنا أم هي؟ لكني يا صديقي لست ظلاً لأحد حتى لو كان شهيداً، وإذا كانت القيمة تقهر ذات الإنسان وتمسح خصوصيته، فإنها قيمة لا قيمة لها..

- هذا لم يكن رأيك قبل أعوام..

- صحيح، لكني لست حجراً، أنا إنسان ومن الطبيعي أن أتغير..

_ أو تتبدل، لا التبدل مرتبط بخيارات، أما التغير فأمر آخر، يأخذ بعين الاعتبار المستجدات.

إذاً لي زوجة الآن وحتى أولاد، أولاد لم أقم بإنجابهم، أبوة وطنية، وزوجة لم أهجس بحبها يوماً، ولم أسهر الليالي وأنا أتشوق لرؤيتها.. كم أنا بحاجة إلى حبيبة.. أسماء، فاطمة اوحتى مليكة.. ما الذي يمنعك؟ قل للزمان ارجع يا زمان!

****

ستفتش عنها يا ولدى

في كل مكان

إنها على صورة قصيدة ناظم حكمت، التي لم تكتب بعد.. ستظل يا بنى تحت وطأة شعور غامض بالفقد، ربما امرأة، ستبقى تركض وراءه..

يهرب منك، تلاحقه.. كأنه السراب ..

– هذه هي طبيعتك حبيبي فأنت حوت لا ترتوي ولا تشبع، ولأنك شهواني وعاشق كبير، فأنت لا تشبع من النساء، ولا ترتوي من الحب أبداً، سأغض الطرف عن مغامراتك الخيالية، ما دمت لا تغادر أحضاني في آخر الليل ..

– لا والله فيك الخير ..

– ماذا قلت ..

– أبدا.

همهمت بشيء ما. لم يكن الوطن على شاكلة المتخيل من أحلامنا، ربما لأننا كنا قد بالغنا في تقدير قدرتنا على صنع المغاير والمختلف، وربما كان فقد الشيء، يجعل من التعلق به شعوراً خارقاً، حتى لو كان هذا الشيء وطناً، بل ربما كان بالذات كونه الوطن..

– لماذا لا تقول العكس..

– ماذا تقصد..

– أقصد أنكم انتم الذين لم تكونوا على شاكلة الوطن، وان غربتكم الطويلة، قد شكلتكم على صورة المنفى، غير واقعيين على اقل تقدير ..

– معك حق .. لكننا سنظل وقتاً، يعتقد بعضنا، بل يقتنع بتفسيري، فيما سيظل يقتنع بعضنا الآخر بتفسيرك.. وقد.. قد يتجاوز الأمر بعضنا وبعضنا.. إلى نحن وانتم..

- فال الله ولا فالك يا أخي ..

- لم ينته امرنا بعد، بانتظارنا نضال طويل.. نضال أضحكتني يا رجل..

بإصرار وثقة، تجاهل ضحكتي الساخرة، وقال:

- نعم نضال مع الذات من اجل البقاء ، بقاء الوطن والدولة.. ثم نضال تفاوضي مع الآخر..

أضحكني صديقي مرة أخرى، ذلك أن لهجته قد تبدلت تماما، وحتى مصطلحاته منذ اللحظة التي سارت فيها أقدامنا على أرض المعبر، وعلى غير ما شعرت به أنا، كان متجاوباً وسعيداً فيما كنت أنا شديد التوتر، كنت كطفل صغير تاهت قدماه إلى حيث لم يكن يدرى أو يتوقع، وفى اللحظة التي صفعت فيها جبيني راية هذا الذي كان قبل أيام عدواً، وصار آخراً الآن، واقتحمت فيه سمعي رطانته هذه التي إذا ما كانت تتناهى إلى سمعنا، ونحن في نوبات الحراسة، نطلق النار فوراً.. كان يمكن لأحدهم أن يمسك بيدي، ويعود بي من حيث أتيت، وما كنت لأقاوم.. أحسست بأني مسلوب الإرادة تماماً، أو كمن وقع ضحية لخديعة كبرى..

كأنه أدرك حالتي..

- ستعتاد الأمر يا صديقي..

- "طمنتني الله يطمنك"..

وكنت أقصد أنه ما زال يعتبرني صديقه، ولم تتغير صفتي معه، من جملة المتغيرات، التي انقلبت رأساً على عقب.. كان الله في عون ضباط الارتباط، كيف يحتملون مجالسة هؤلاء..

- الناس ليسوا جميعاً على نفس الشاكلة.. بعضهم يحتمل، وبعضهم يبدي انسجاماً غريباً.. يرحم الله الشهداء الذين سقطوا على طريق العودة إلى الوطن..

- تقولها وكأننا نعود على أسنة الرماح..

- لكن عودتنا ليست ذليلة على كل حال.

- لكنها إشكالية.. ولا يمكن أن تنكر أنها جاءت نتيجة صفقة..

- صفقة سياسية من فضلك..

- ليس هناك كبير فرق يا عزيزي..

استقبال الناس لنا كان خرافياً، ومشاعرهم العفوية فاقت حدود التصور أو التوقع، الأيام التالية أنستنا مفاجأة حاجز العبور إلى الوطن، نحن هنا نبدو وكأننا لم نتجاوز بعد بوابته، فالوطن ما زال ممتداً أمامنا وممنوعاً علينا، لكنه الجزء المتاح لنا من الوطن على رأي الشاعر.. لن تطول بنا حال التوافق والانسجام، فرغم أنهم أهلنا، إلاّ أننا نختلف عنهم، سنجد فينا من يعزز تشكيلاتهم المتخلفة ويركب موجتها، لكن أغلبنا سرعان ما يحن إلى حياة خاصة تعودنا عليها في المنافي.. وسنجد حل المعضلة في أبراج ستنتشر كالزرع الشيطاني، سنزرع الأسمنت بدلاً من أشجار البرتقال والزيتون، وسنتنفس هواءً آخر، بدل الهواء المشبع برائحة زهر الليمون، الذي كان يتغلغل في خلايانا الطرية، حين كنا صغارا.

- ما هذه الورقة التي في يدك يا انتصار يتأكد لي يوماً بعد يوم بان من سماك بهذا الاسم، إنما كان يتنبأ بان تكوني زوجتي، وأن تحققي ضدي أنا بالذات انتصاراً تلو الآخر..

- ما هذه الورقة..

لوحت بها في وجهي،

- كتاب تعينك مديراً عاماً في الوزارة التي حلمت بها دائماً..

- وزارة، صارت لدينا وزارة..

- قل وزارات،

- وماذا بشأنك أنت؟

- أنا موعودة بوكيل وزارة،

- نعم هذا جيد ...

- أتعلم يا حبيبي سيتم صرف سيارة مع سائق لي، وأخرى لك وسائق أيضاً،

- ولماذا، هل نحن بحاجة إلى أكثر من سيارة ولماذا أكثر من سائق..

- يوه يالك من ساذج، حالنا من حال الناس مثلنا..

سكت مهزوماً، كعادة مساجلاتي اللاحقة معها.. ولم أدرك حتى أن الأمر سيتجاوز ذلك، لدرجة أن المحروس ابنها سيحصل على درجة مدير، وابنتها التي ما زالت على مقاعد الدراسة الجامعية، على وظيفة أيضاً..

ثم أن نتوه بعد ذلك في جملة من الترفيعات والتغييرات الوظيفية، والمطالبات التي لا تنتهي، بعضها خاص بتغطيات الأثاث، وبعضها عل هيئة مهمات خارجية..

حتى صرنا كمن يعيش عل مكافأة آخر المدة، لكننا لم نحل إلى المعاش بعد،

ألم يقل صديقي بأننا ما زلنا في حالة نضال؟

- دعك من كل ذلك.. كيف يمكنني أن أواصل الكتابة دون أن تدور الأسئلة في رأسي؟

سحقاً لهذا الرأس وإلى الجحيم أيتها الأسئلة، أليس لهذا الانحدار من قاع يا أخي.. رحمك الله يا سعد الله ونوس أحياناً يكون الموت الذي يجيء في وقته راحة حقيقية لمن لا يقوى على احتمال كل هذا التسارع في الانحدار..

كنا نصف خروج البعض، أو بعض السلوك، عن دائرة القيم، بالانحراف، وكنا نواجه بالفم الملآن والعين القوية من يفكر في ذاته على حساب المجموع، منذ الآن ستكون في انتظارنا أيام، سنبحث عن الصواب باعتباره الاستثناء عن القاعدة.

يا الهي كيف تتغير الناس بهذه السرعة، الظروف يا صديقي، ألم تكن ممن يقولون ذلك، لكن كيف نتحول من النقيض إلى النقيض على هذا النحو..

فنحن إما أن نكون غيريين إلى حدود الشهادة أو أن نكون ذاتيين إلى حدود الأنانية.. إراديين أو قدريين.. لا نعرف التوازن أبداً بين المتناقضات.. همهم صديقي مستسلماً هذه المرة.. وقال في هذه النقطة، قد يكون معك حق، بل ربما كل الحق أيضاً.

****

- أين كنت يا بنت؟

وكدت أن أهوي على وجهها بالصفعة، جحظتني بنظرة وقحة وقالت:

- وما شأنك أنت حتى تسألني.. أنت يا دوب زوج أمي.. ولو كانت قد سمعت كلامي أو أخذت مني إذاً لنصحتها بأن تظل أرملة أبد الدهر،على أن تتزوج رجلاً مثلك..

- احترمي نفسك وإلاّ..

- وإلاّ ماذا، إياك أن تتجاوز حدودك.. والله كان الأفضل لها أن تعيش على ذكرى والدي من أن ترتبط برجل مثلك.. أو حتى أنه كان أفضل لها ولنا أن تبقى حرة من أن تضع في بيتنا رجلاً مثلك يسألنا عن خروجنا وذهابنا.

هرعت الأم والولد على الحوار الساخن والصوت المرتفع، وأخذت ابنتها إلى الداخل، ثم عادت لتجلس جواري، فتهدئني من ثورتي..

- حبيبي، قلت لك أكثر من مرة، بان الأولاد قد صاروا شباباً، ولهم شخصيتهم وخصوصيتهم، وانه من الأفضل لك أن تريح نفسك. اترك شأنهما لي أعالجه بطريقتي..

- لكن الناس هنا مختلفون، نحن هنا لسنا في تونس أو بيروت، علينا أن نتجنب قليلاً همس الناس ونظراتهم.. لكن حياتنا ملك لنا، ولا أحد يقوى على أن يمس طرفنا..

- بشرفنا يا انتصار وليس بقوة المرافقة والمركز..

- حياتنا من حقنا وليس للآخرين الحق بأن يفرضوا معتقداتهم البالية على سلوكنا..

- لكنهم يعتقدون بأن الولد والبنت هم أبنائي.. وأنا كذلك، على الأقل ما داموا في بيتي، فيجب أن يراعوا سمعته..

- دعك من كل ذلك، وتعال اجلس بقربي، أعلمك كيف تفتح جهاز "الكمبيوتر" وكيف تدخل على الإنترنت..

- وما شأني أنا بهذا الجهاز..

- تعال بس.. تعال..

لوهلة تخيلت جهاز الحاسوب، الذي لا يحسب شيئاً، سوى حفظ ما تزوره من مواقع، هذا ما عرفته لاحقاً، آلة البيانو، من شدة ما رأيته من براعة زوجتي في اللعب على لوحة المفاتيح، التي تسميها "كي بورد"

- ماذا تفعلين؟

- وسحبت كرسياً لأجلس بجوارها، شعرت على الفور بفضولي، فحركت قبضة المؤشر في يدها، التي يسمونها "الماوس".. لم يتم تعريب الجهاز بعد..وحتى لا تخسر الفرصة المتمثلة باستعدادي الأولي لدخول هذا العالم، أغرتني بالقول:

- أنظر هذا موقع ثقافي، أقوم فيه بتخزين المقالات الثقافية التي تهمك.. واستعرضت أمامي عناوينها، أنها هامة وللجهاز إذاً فائدة، وهو ليس كما اعتقدت حتى اللحظة، من أنه مجال لممارسة لعب الورق، كما أرى الزميلات في العمل، اللواتي أراهُن دائماً، يقمن بترتيب الورق حسب التسلسل الرقمي واللون وما إلى ذلك.

- انتصار علميني كيف يمكنني أن أفتح الجهاز؟

- الأمر سهل يا عزيزي، تفعل هكذا..

تعلمت بصعوبة، فقد كان الفأر يشرد من يدي، ويهتز المؤشر، لكنني شيئاً فشيئاً سيطرت عليه، لابد أن أجلس طويلاً حتى أقرأ ما حفظت لي من مقالات..

- لا يا عزيزي يمكنك أن تقوم بطباعتها، فتقرأها على الورق، هكذا يكون أفضل.

قبل أن يدخل الجهاز بيتنا، كنت الساكن الوحيد فيه تقريباً، فمعظم الوقت، أبقى وحيداً، أقرأ الصحف والكتب، اكتب أو أشاهد التلفزيون، في حين تكون انتصار في زيارات دائمة لصديقاتها، لا تفوتها مناسبة، أحياناً تقلُ الأولاد في سيارتها، وأحياناً تذهب وحدها، وكانت أية مقارنة لمعدل استهلاك الوقود بين سيارتينا دليلٌ على ذلك، لدرجة أنها كانت تستخدم سيارتي أيضاً، وتبرر ذلك بالقول، بأن السيارة يجب أن تتحرك يومياً، حتى لا يصيبها العطب..

الحال بدأ في التحول شيئاً فشيئاً، وصارت انتصار تقضي وقتاً أطول في البيت، مما دفعني أنا إلى أن أتردد عل المقاهي والأماكن العامة، حتى أوفر لها أجواء العزلة المنزلية..

الأولاد أيضاً، الذين قلما كنت أراهم في ساعات النهار، باتوا يمكثون في البيت وقتاً أطول، لدرجة شعرت معها بسحر هذا الوافد الجديد على حياتنا، مما زادني شوقاً للوقوف عند مكنوناته وأسراره الداخلية العجيبة..

- أسامة أنظر..
- تطلعت إلى الشاشة،
- ما هذا؟
- هذا مفتاح شخصيتك، هذا الموقع، بل كل المواقع تقريباً، تحتوي على الأبراج، في هذا الموقع تقرأ طالعك اليومي، الأسبوعي، والشهري، وحتى طالعك حسب التقويم الصيني.. كذلك يمكنك أن تقرأ المواصفات العامة لكل الأبراج، من الجنسين، الرجال والنساء..

قرأت باهتمام..

- حسنٌ ما يقوله فيه كثير من صفاتي، فعلاً أنا مزاجي، خيالي وحالم، أعشق النساء،

- نعم.. نعم أنت مائي يا عزيزي، عميق الأغوار، صافٍ لكنك هادر أيضاً

- وأنتِ؟

بحركة سريعة من المؤشر السهم، فتحت لي شخصيتها، هذه التي أمضيت سنيناً وأنا أحاول أن أقرأها.. هذا علم فريد يريحنا من عناء البحث والتجربة أيضاً.. أنت هوائية، متقلبة، تعشقين السفر. وذات شخصية قيادية، تحبين الثناء والغزل، هذا صحيح بشأنك أيضاً..

- ألم اقل لك،

وصارت كل يومٍ تقرأ طوالعنا اليومية، أنت اليوم سترتكب خطأ، ربما حادث سيارة، لذا فعليك أن تبقى بالبيت..

- أتعتقدين؟

- لا مجال للنقاش حبيبي...

كانت مناسبة لأن أجلس أطول فترة أمام الجهاز، أداعب مفاتيحه وأتنقل بين المواقع العديدة، هنا في المحفوظات، أكثر المواقع، أفضل مائة موقع، أكثر المواقع غرابة..

أكثر المواقع زيارة، الدردشة.. أنها مناسبة لأن، يقهر المواطنون العرب الحواجز والمعابر وتأشيرات السفر، وعناءه أيضاً، وأن يحتالوا على التقاليد التي حرَمت على الجنسين أن يلتقيا دون رقيب، يمنع الشيطان من أن يكون ثالث الرجل والمرأة، حقاً أنه يحدث ثورة حقيقية، لكن ما هذا.. نانا الاسم المحفوظ للمشاركة في الجهاز، دخلت عالماً عربياً، متعدد الجنسيات والأجناس، لأجد أن الكل هنا يرتدي قناعاً، كأنه في حفل تنكري..

- أهلاً نانا، كيفك..وينك..شو أخبارك..

- أنت شو أخبارك..شو لسة صاحي من النوم..

- أبداً أنا ما نمت من أصله،

- ولم بعيد الشر، إن شاء الله خير..

- بفكر فيك طول الليل..

- اسمع، ذكرني بنفسك، أنا نسيت علشان لسة صاحية من النوم..

- ولو يا نانا ما سهرنا الليلة للصبح، نسيت الكلام الحلو .. أنا سوسو الحباب أبو "   " وتلفظ الوضيع بالقول النابي.....

صارت رأسي كأنها مرجل،

- وانت قديش عمرك يا سوسو بلا صغرة،
- عمري من عمرك يا عيني 21 سنة، انت نسيتي كل شي ولاَ شو..

أغلقت في وجهه "الشات"، وتحولت إلى مكان آخر، يتحدث المشتركون بكلام غير مفيد على الإطلاق، ليعبروا عما لديهم من فراغ في الوقت وفي الثقافة أيضاً..

وجدت اسماً آخر _ صدى _ اسم شاعري جميل، لكن أية بيانات وضعتها زوجتي لترافق الاسم، وأي قناع وضعته أمامها، لتتحدث مع الآخرين الوهميين من ورائه..

- أنا بحبك يا صدى..
- هكذا خبط لزق، هل رأيتني..
- لا،
- هل سمعت صوتي؟
- لا
- هل عرفت اسمي الحقيقي
- لا
- من أكون
- لا
- كم يكون عمري
- لا
- ثم هل أنت رجل أم امرأة..
- أنا آنسة يا عزيزي..
- آنسة؟ واسمك صقر العرب؟

- كما أنك أنت شاب واسمك صدى؟

- هكذا إذا،

- إنه عرف إلكتروني يا عزيزي يعرفه أهل الدردشات، ويقول هذا العرف بقلب الأسماء، ألا يكفي أنها تجعل من رمضان وائل، ومن خديجة ديمة، حتى يتسمى الرجال بأسماء مؤنثة، والنساء بأسماء مذكرة.. الشيء الذي لا تعرفه يا عزيزي هو أن الخوف والحذر يدفع الناس لأن تضع ألف قناع وقناع على وجوهها، قبل أن تتحدث إليك.

ثم لا تنسى بأن معظم المشتركين هم من أبناء الخليج، الذين تحاصر مجتمعاتهم نساءهم بأصعب القيود وأشدها صرامة، لذا فهم يلجأون إلى كل ما من شأنه أن يبعد أي احتمال بالتعرف على شخصياتهم الحقيقية..

- وماذا يكسب الشاب أو حتى المرأة من صحبة الآخر، عبر الأسلاك . . ضحكت وقالت:

- ربما يمارسون الجنس عبرها . .

- انظر، لقد صنعت لك بريداً الكترونياً، تعال افتحه وشاهد بعينك ما ترسله لك الشركات، وحتى أشخاص ما يعرفون بريدك . .

كانت المشاهد الإباحية الشاذة، تفوق كل تصور أو توقع وهذا يعني بأن مثل هذه المشاهد، قد تصل إلى كل شاب أو فتاة وحتى إلى الأطفال . .

- بل هذا مؤكد يا عزيزي ..

- ليذهب هذا الجهاز إلى الجحيم،

ونهضت لأهوي عليه بقبضتي،

- لا . . لا عليك، نحن سنخسر ثمن الجهاز، ولن يتوقف غزو الشبكة للبيوت والعقول ولنسيج المجتمع أيضاً . .

- معك حق . .

وارتميت على الأريكة أقل غضباً . .

- لكن ما هذا التصابي يا انتصار، تدردشين مع صبية في عمر ابنك وابنتك؟

- وما الضير يا عزيزي، نتسلى ونقضي الوقت، ونشعر ربما بأننا ما زلنا شباباً،

- أنت تحبين الغزل والثناء، وتعشقين من يشعرك بأنك ما زلت شابة جذابة .

- هذا ما يقوله الطالع . .

- لكنهم يقعون أسرى رنين الاسم، ولا يرون صاحبته.

- ولكن ما أدراك أنت،

وضحكت من أعماقها،

- إذاً فأنت تدردش أيضاً . .

تعلمين لم أكن أتخيل بأن الحواجز بين الجيلين، جيلنا وجيل أبنائنا إلى هذا الحد من القطيعة، إن مجتمع الشباب بالذات يتشكل الآن عبر شبكة الإنترنت وأثير الهواتف النقالة..

- ألا تلاحظين معي بأنه يكاد يندر أن ترى شاباً جامعياً لا يحمل هاتفاً نقالاً، أو لا يجلس يومياً على مقعد في "الكوفي نت" وراء مثل هذا الجهاز، الذي لم يعد حاسوباً، بل حافظاً لأسرار غير مهمة على الإطلاق . .

- لقد بدأت ترى يا عزيزي كل الشباب والصبايا على شاكلة ياسر ودلال . .

- ربما كان ما تقولين صحيحاً، لكن هل الأمر فعلاً هو غير ذلك؟

- فماذا نفعل إذاً؟ هل نقوم بحبسهما، ومنعهما من الذهاب إلى الجامعة، أو من مصادقة زملائهم أو معارفهم أو حتى الجيران في مثل سنهم؟

- أبداً، لكني أكثر من ذلك، أعتقد بأننا السبب في كل الضياع الذي يواجهه هؤلاء الآن، فهم صاروا فجأة دون آباء وأمهات وحتى دون أساتذة . . ليس لدينا سوى الإحباط، ماذا نقدم لهم، حتى يشعروا بالأمان والاستقرار والجدوى . .

- أرأيت ليس أمامهم سوى الفراغ، لا شئ في محيطهم يحثهم على أن يكونوا أكثر جدية.

تناولت سيجارة، أشعلتها، وقلت بعد تروٍ وعن قناعة، في تلك اللحظة على الأقل:

- أتعلمين يا انتصار، نحن هنا أحوج الناس جميعاً إلى المهدئات، من كل نوع وصنف . . المهدئات التي تبدد الطاقة، طاقة الذهن، وحتى الطاقة العضلية . .

البعض يجدها في الدردشة، البعض سار قدرياً تسوقه نبوءات الطالع، البعض يجد سلواه في الصلاة، والبعض في المخدر . . ولا أحد يمكنه الادعاء بأن لديه وضوحاً في الرؤية، ليس العامة وحسب، ولكن الخاصة أيضاً، ما هي مشاريعنا . . نحن على سبيل المثال، بتنا تقريباً بلا طموح . . لدينا البيت، السيارة، الرصيد البنكي . .

- فماذا نريد بعد ذلك ..

- نريد السعادة، أن نشعر بجدوى حياتنا، بأن لوجودنا قيمة وأهمية لنا وللآخرين . .

- هذا نفتقده حقاً . .

واتفقنا في مرة نادرة على شيءٍ واحد .. لذا فقد ارتحت قليلاً وذهبت في قيلولة، لأريح رأسي من وجع الأسئلة.

- أي لف يو

أسعدتني العبارة، فأنا لم أسمع كلمة حب من أنثى أشتهيها أو أرغب فيها منذ وقت، وحتى الكلمات التي تتلفظ بها زوجتي من هذا القبيل، تسقط من بين شفتيها ميتة، دون حرارة عاطفية، فهي تلقيها باعتيادية، حتى دون أن تفكر فيها..

العبارة التي دلّت على روح عاطفية شابة، لكن لماذا أفترض أنها مرسلة من فتاة، لأنه لا يعقل أن تأتيني من رجل..

أيام قضيتها والعبارة تتردد في ذهني، ويزيدها جمالاً أنها تنتمي لروح العصر والموضة، فتخرجني من الشعور الذي بدأ ينتابني منذ وقت، ويثير فيّ قلقاً مرعباً، أنا الذي ما كنت أتوقع أبداً أن أشيخ يوماً، لكن الحقيقة بدأت تترك آثارها على وجهي وجسدي، خصلة الشيب على جبيني، ضعف النظر، وزحمة المعلومات في الذاكرة، والتعب في الأوصال..

كم من فواتير أجدني قد أجلت دفعها، وأجدني مطالباً بتسديدها دفعة واحدة، كل ما أخرت سداده في وقته، يزدحم في أجندة مفكرتي..

لكن من هي صاحبة هذه العبارة الساحرة، ولماذا لم تعد لي مجدداً، وقد أثارت فيّ إعجابي بذاتي، الذي لازمني دائماً، هذه الفتاة لا بد أن تكون أصغر مني بعقدين من الزمن، وما الضير في ذلك فالحب لا يعرف الحواجز أو الفوارق..

- حب؟

- ماذا تقصد، وهل تعتقد بأن جيل هذه الأيام يحب على طريقتنا؟

- إن لم يكن كذلك، فأنا يمكنني أن أحب على طريقته..

- هل أنت واثق يا صديقي، الحب هذه الأيام عابر ومراهق وماجن، وفي كثير من الأحيان لا يتجاوز كونه فاصلاً من تسلية، أصحابه يعانون من امتداد الوقت والفراغ، فهل أنت على استعداد لقضاء الساعات والأيام في الحديث والمشاوير واللقاءات التي لا هدف لها، سوى التسلية، ولا شيء غير ذلك؟

من بين كل البنات اللواتي كن يحطن بي، في الجامعة وفي الاتحاد، وحتى في الحي الذي أسكن فيه، أعجبتني أسماء بجمالها وهدوئها ورقتها، وبحذر شديد تعمدت أن أجلس بجوارها يوماً أثناء المحاضرة الجامعية، كنت متوتراً وشارد الذهن، وبعد عدة مجاورات، عرّفتها بنفسي حتى تقدم لي اسمها الذي لم أعرفه كاملاً إلاّ بعد وقت من ذلك.

وبعد وقت أيضاً، استعرت منها دفتر محاضراتها، حتى أدس فيه الكلمة الساحرة –أحبك– ثم أستعيره مرة أخرى، بعد ذلك مرات، حتى عثرت على كلمة اعتبرتها بمثابة الرد..

حين كتبت لي تقول

- أنا..

ثم تجول المرسال بيننا مرات عديدة حتى اكتمال الكلمة

- أنا ب . ح . ب . ..

وبعد أن وضعتني على نار حامية.. وبعد أيام طويلة أكملتها بالحرف المجنون

- الكاف،

الذي ربط الجملة بشخصي، وفتح العلاقة بيننا.. اليوم تلقي لي فتاة، هذا ما افترضه حتى الآن.. بالكلمة بأسهل من شربة ماء على عجل..

- آي لف يو..

ثم يجيئني بريد إلكتروني، يدعوني إلى محادثة مباشرة على الشبكة الإلكترونية

- بحب أتعرف عليك..

ثم ينتهي الأمر..

- لماذا أحضرتِ لي هذا الهاتف النقال يا انتصار.. وما حاجتي له أصلاً..

- يا لك من رجل، ألا ترى أنه حتى المراسلون والطلبة والباعة المتجولون، يحملون هواتف نقالة.. كيف يمكن لمدير عام في مؤسسة عامة، أن لا يحمل مثل هذا الجهاز العصري.. كيف يمكن للأمر أن يستوي مع مكانتك الاجتماعية.

- مكانتي الاجتماعية؟ صارت تتحدد إذاً هكذا بمثل هذه الشكليات التافهة..

- تافهة لكنها ضرورية يا عزيزي..ووضعته في يدي،

- أحتاجك أحياناً، وحين أحتاجك يجب أن أجدك على الفور..

كانت كمن يلقي إليّ بأمر غير مسموح النقاش فيه..

- بحب أتعرف عليك..

ثم قدمت لي بياناتها، كمن يقدم بضاعة لبيع، لكن صورتها الفاضحة، كانت تظهرها على قدرٍ كبير من الجمال والأنوثة والإغواء أيضاً.

أية متعة داعرة، تشعر بها مثل هذه الفتاة، التي تزرع صورة مفاتنها في خيالات الرجال، تذكرت رجلاً روى لي مرة حكاية ظننتها ستكون عابرة في ذاكرتي، لكنها تؤكد لي الآن أنها لم تكن كذلك..

وكان يعمل مصوراً في بلد عربي، مشهور بتزمته الاجتماعي، أول حرف من أسمه , كما اعتاد القول , السعودية , وقال لي انه من جملة المفارقات التي مرت عليه في حياته العملية، أنه جاءت إليه يوماً

فتاتان مجلببتان بشريط، طلبتا منه تحميضه ونسخه، وذهبتا، ولم تعودا بالطبع لأخذ الصور، التي كانت تصورهما عاريتين تقريباً.

هذا تقريباً ما تفعله بي هذه الفتاة، هل كانت تطلب مني بدورها أن أرسل لها بدوري صورة خاصة لي مشابهة، فتقيم علاقة شهوانية متخيلة،

- ما دام الواقع يحول دون قيام مثيلها بالفعل؟

- لست أدري لكن ما أعلمه حقاً هو أنني بحاجة إلي إثارة تنزع عن كاهل روحي شيخوختها، حتى لو كان على شكل علاقة مع فتاة شابة، بل ربما بالأخص أريد هذا الشكل بالذات، لكن ليس بهذه الطريقة..

لقد أدركت بأسرع مما كنت أتوقع، بأنني مهما حاولت مجاراة الشباب فلن أقوى على استيعاب شبابية هذا الجيل، فالشباب الذي أنشده ما زال أخلاقياً وعاطفياً، وليس مجرداً وحسياً إلى حدود الابتذال، إلى هذا الحد.

الحدّية المطلقة من حولي تثير جنوني، والمتناقضات المتشابكة إلى حدود الفجيعة والمفارقة تكبلني بعجز لا حدود له، المواجهة الدموية على الحواجز ونقاط التماس، تبدو في أعين المشاهدين من حولنا، كأنها مشاهد سينمائية طازجة، وأنت الذي طالما كنت لاعبا أساسياً على مسرح المجابهة طوال العشرين سنة الماضية، تبدو اليوم أقرب إلى المشاهد منك إلى المشارك لا تقوى على اللامبالاة، فالمشاهد اشدّ وطأة من نصل سكين متلوم، يحز أعصابك، ولا تقوى كل السجائر على مقاومة مفعوله..

- لكنك أنت أيضاً بدرجة أو بأخرى تعتاد الشعور بالفجيعة، فالآن لا مجال لتصاعد التفاؤل مطلقاً، وحتى حين ترتاح نفسك قليلاً، حين يشفي الغليل تصويب مضاد، أو تفجير استشهادي، فيوقع في صفوف القتلة قتلى، فإن الوقت لا يتسع كثيراً، فرد القتلة يكون أسرع من أن يوفر لك وقتاً تشعر فيه بالارتياح.

كأن الحب إذاً الذي تسعى إليه دون جدوى، رد فعل غريزي، على كل هذا الموت الذي لم يعد يحيط بك وحسب، ولكنه يتسرب إلى كل مسام جسدك، وإلى كل ثنايا روحك، تتشبث به كما يتعلق الغريق بقشة في مواجهة تلاطم أمواج البحر الهائجة..

لم تجده في الواقع، فتذهب إليه، كما هي عادتك عبر أثير المخيلة، لكن الأخيلة الآن لم تعد وجهتها إلى الأمام، لم تعد قادراً على توقع الحبيبة المستحيلة، أحلامك صارت وراءك يا صديقي، بعد أن كانت أمامك دوماً..

ضحك مني ساخراً وقال:

- هذا يعني بأنك صرت حالماً رجعياً، بعد أن كنت حالماً ثورياً.

لم أجرؤ على الرد، لكني قلت في داخلي، بان ما قاله صديقي يبدو صحيحاً تماماً، فأنا الآن لا أفكر سوى بأسماء، ولا أتوقع سوى الموت، ولا أرى أمامي وعلى وجهي وفي أوصالي، وحتى في رأسي سوى الشيخوخة التي تداهمني، دليلاً على أن الموت يصرعني، ويتمكن مني أخيرا..

- أسماء، ما الضير إذاً، مازلت أراها على آخر صورة رأيتها فيها قبل عشرين عاماً..

- الذاكرة هكذا يا صديقي متخلفة دائماً، لا تحتفظ سوى بصورة انقطعت عن سياق الصيرورة، وأنت نفسك لو رأيت أسماء اليوم فلن تعجب بها، بل ستظل تحب فتاة تشبهها، ربما تعجبك ابنتها، وضحك ساخراً كعادته دائماً..

- تعجبني ابنتها؟ وهل يعقل؟

- حقاً أيكون لديها ابنة أيضاً..

لا بد أن يكون أسامة قد صار شاباً، لكن أن تكون لديها ابنة أيضاً..

كان الأجدى أن تكون البنت لي، وأسميها أسماء، لكنني لم أفعل، فكنت دائماً مأخوذاً بالوقت، ألوي عنقه عنوة، ولم أقدر الزمن حق قدره..

أنا أبدو الآن غير منطقي، فحتى إن كنت مقتنعاً بقدرتي على أن أحب، في هذا العمر، وحباً صافياً بالذات، فلا يمكنني أن أفعله مع فتاة من غير زماني.. ثم إن حياتي الخاصة تكبلني، فمن غير الأخلاقي أبداً أن أرتبط بامرأة، رغم كل ما يتخلل زواجي من ظروف غير منطقية، فليس مثلي من يفعل ذلك ، حتى في ظل انهيار الأخلاق..

الأخلاق لا تعنيني كثيراً، بل أن القيم التي ما زالت تسكنني تمنعني من القدرة على أن أنهار أنا أيضاً..

يا إلهي إنني أتحطم، لكني لا أهزم، أشيخ وأموت وأهوي، لكنني لا أهزم، كأنني شيخ همنجواي، في الحقيقة أنا غير قادر على التساوق والانخراط في الواقع، مهما حاولت، وهذا هو سر عجزي.

– تعرف.. لم يعد بمقدورك أن ترى الدنيا أمامك، كنت في الماضي لا تقتنع بالواقع، وكنت مقتنعاً حتى العظم بأنه يمكن تغييره إلى الأفضل، لكنك اليوم لا ترى الواقع أسوأ من الماضي وحسب، لكن فكرة تحوله إلى الأسوأ لا تغادرك، ولأنك كبرت في وعيك أيضاً، فلم تعد أوهام المراهقة الثورية تستهويك أيضاً، ولأن الميتافيزيقي غادر رأسك إلى غير رجعة، فإن الاضطراب الداخلي يعتريك.

كأنك دون كيشوت عصرك يا رجل، أترك شأن الخلق للخالق، وانتبه لنفسك، هكذا ستكون خياراتك كلها خاسرة، على الأقل تشبث بما هو أقل خسارة..

– هذا الرأس، وهذا القلب هما أساس علّتي، ما علّي إلاّ أن أطلق عليهما رصاصة الرحمة.. في لحظة يأس أو شجاعة نادرة، وينتهي الأمر..

– لم العجلة يا عزيزي، وكأنك الفارس العربي الأخير، الذي هتف يوماً يقول بيدي لا بيد عمرو.. أنظر إلى الرسالة الأخيرة التي وصلتك عبر بريدك الإلكتروني..

– أيها الوقح.. إن لم تضع لسانك في حلقك.. بل أن لم تبتلعه تماماً، فإنه لن يكون بمقدورك أن تقرأ نعيك غداً بنفسك..

الأمر بالنسبة لنا أسهل من شربة الماء.. نحن لا نعيد تحذيرنا مرة أخرى.. والأمر بالنسبة لنا قد انتهى.. كلمة أخرى تصدر عنك، ونرسل الإشارة إلى من هو جاهز على التو للتنفيذ..

لم يساورني الشك لحظة في جدّية التهديد، لكن بالله عليك، هل يمكنك أن تخمن مصدره؟ الجانب الآخر؟ من هم فوق أم من هم تحت؟

على الأغلب هذه دعابة، لست الوحيد الذي تصدر عنه انتقادات هنا أو انتقادات هناك، ثم إنك تمارس لغوك منذ وقت، لا يمكن أن تأخذ الأمر عل محمل الجد، وإلاّ فإنك تكون كمن يبحث عن خاتمة مثيرة للقصة المملة..

– قلت قصة..

– ومملة،

- القصة لم تنته بعد،

- بل قل إنها إنما تبدأ الآن، وعلى التو، ودورة الحياة على كل ما فيها من هراء ومن عبث فإنها ما زالت تدور وستبقى كذلك، ونحن لسنا سوى صور باهتة أحياناً، وفي أحيان قليلة تكون أكثر وضوحاً.. كيف ستحمل على أذرعتها أمثال ياسر ودلال، وكل هؤلاء الفتية..

- اسمع يا عزيزي، سأدبر لك مهمة إلى الخارج،

- أسافر يعني

- نعم تسافر،

- وإلى أين؟

- إلى أمريكا إن أردت..

- بل قولي إلى كندا أو استراليا، ألم تفكري بذلك مراراً من قبل، وكنت أنا الذي يعارض دائماً، أنا الآن جاهز لمثل هذا الخيار..

- لا أنا لا أقول بأن تذهب هكذا، أن تغير جواً فقط..

- وما الفارق، أن اذهب ولا أعود، أو أعود شخصاً آخر؟

- ما رأيك لو جلسنا بهدوء، بعد أن نأخذ برهة من كل هذا الصخب الذي يدور حولنا، وبحثنا في كل الاحتمالات الممكنة لبداية جديدة، أن نكتب حكايتنا الجديدة بسياقات أخرى؟

- مثلاً..

يمكنني أن أؤجل فكرة الانتحار، فماذا لو سعيت إلى التأقلم..

- رائع،

هتفت بترحاب وقالت:

- فكرة جميلة.. أكمل..

– أن أتأقلم، ولكن على أي مستوى؟ مع الذين فوق؟ أم مع الذين تحت، مع من يتساوقون مع عصر العولمة، أم مع المنتكصين إلى غياهب التاريخ، مع من يعيشون في الماضي البعيد، أم مع من ينخرطون في اللحظة اللقيطة؟

هل أخرج من التاريخ، أم من الجغرافيا؟ قولي لي بربّك، هل يمكنني أن ألقي بكل أحلامي وأفكاري، وكأنها ثوب بالٍ عن كاهلي، وهل يكون بمقدوري أن أجاري اللصوص والفاسدين، أم يكون باستطاعتي أن أنافس الدجالين؟

هل أنا وحتى أنت قادران، على أن نعود صبية مراهقين، حتى نكون على القدر المناسب من السذاجة، لتصديق كل السخافات التي تدور حولنا، أم نختار موتاً حياً، ونموت قبل الأوان؟

انتابها اليأس، فقالت:

– عزيزي أود لو أسألك سؤالاً، قبل أن أذهب إلى النوم..

صمت في انتظار أن تسأل، فقالت:

– لو أن الأيام عادت إلى الوراء عشرين عاماً، وكنت تراها وأنت مقيم في هذه اللحظة، هل كنت تفعل ما فعلت، أم شيئاً آخر..

ضحكت من أعماقي ضحكة كنت أحتاج إليها حقاً، ثم سهمت برهة، فالسؤال جدّي، وجدير بالتفكير حقاً..

– حقاً ماذا تراني كنت أفعل..

– اسمعي يا عزيزتي، طبعاً أنت تعلمين بأن سؤالك مستحيل، لكن لو أن الإنسان كان يعلم مآل حياته، ونظر إليها من عالم الغيب، لربما انتابته رتابة ملل قاتلة، فالحياة ممتعة حقاً، حين تنطوي على المفاجأة، وحين يتخللها فعل المغامرة..

ثم اسمعي نحن نقيم تاريخنا وفق معيار اللحظة، والصح هو أن نقيمه وفق معياره، فلو أن التاريخ الحديث، سار وفق منطق العدالة، وليس وفق منطقه الأزلي، لتغير الحال تماماً، ولكنا اليوم نستمتع بتحقيق أحلامنا وتوقعاتنا. ثم ألم نكن نشعر بالسعادة ونحن نقضي أيامنا نناقش الأفكار، ونمارس قناعاتنا، وحتى ونحن ننكر ذواتنا الشخصية، ونعلي من شأن الجماعة.

مشكلتنا لم تكن في ما مضى من أيامنا، بل هي فيما هو واقع منها، كنّا متوافقين مع أنفسنا ولم نشعر يوماً بأي اضطراب أو اغتراب أو مفارقة، كنّا نتقاتل، ونقضي الساعات لنصحح قولاً أو مقولة، ولا نشعر باللاجدوى على الإطلاق، نحن الآن لا نفعل شيئاً، كل وقتنا فائض عن الحاجة، يمكننا أن نقضيه في النوم،في الراحة، وحتى أنه بات بمقدورنا أن نسهر، أن نسافر، أن نأكل وأن نلبس ما نريد، لكننا لا نشعر بأية متعة على الإطلاق. نحن الآن في مشكلة..

والمشكلة أن ما يحيط بنا قد تغير، ونحن _ أنا على الأقل _ لم أتغير..

أو على الأقل، لم أتغير بنفس القدر، ربما لأنني لا أريد، وربما لأنني لا أقوى على ذلك، ربما كان السبب ذاتياً، له علاقة بما تكرس في رأسي من أفكار، وما تخلل روحي من مفاهيم ورؤى، وربما كان السبب موضوعياً، له علاقة بالمجايلة..

- أنت تقول هذا، أنت الذي لا يشيخ أبداً؟

- تعرفين تنتابني الفكرة أحياناً باني أكثر شباباً ممن يصغرونني بعشرين عاماً، الناس هنا لا يتقنون الحياة، بقدر ما يعرفون مظاهر الموت جيداً.. انظري ما الذي يدل على الحياة، أليست الحركة؟

- فعلاً.. وإذا كان كل ما هو حولنا ينتابه السكون ، فأين هي الحياة إذاً؟

الشباب هنا لا يعيشون حياة فتية بل وكأنهم مقبلون على موت مؤكد، أليس الأمر كذلك. نعم، لكن عليك أن تعيش حياتك كأنك تعيش أبداً، أو كأنك تموت غداً..

حين تنعدم الحياة في الواقع، تتعزز حالة التعفف عنها، لذا فإن البعض يتجه إلى حافتها على الفور. كثير من الناس هنا، فمن هم في عمر الزهور، أراهم كمن قد حفر قبره، وجلس عند حافته ينتظر أن يموت غداً..

- ما دمت لا تتغير يا عزيزي، فعليك أن تحتمل..

- نعم.. نعم..

- انظري، فأنا أولاً وأخيراً إنسان من لحم ودم، ولست حائطاً، من الطبيعي إذاً أن أشعر بالقلق، بالاغتراب، بالكآبة، أفرح يوماً، وأحزن يوماً، أحتج حيناً وأرضى أحياناً.. المهم أن لا أستحيل حائطاً، جامداً، لا يتأثر ولا ينفعل..

– اتفقنا إذاً، طابت ليلتك، نكمل غداً، ولا تنسى أن نناقش سيناريو آخر، لنواصل الحكاية، أو ما رأيك لو استعنا بالعرافة التي قرأت كفك يوماً.. ونسيت يومها ما قالت لكنك استعدته بعد مضي كل تلك السنين الطويلة..

– تصبحين على خير يا عزيزتي ودعك من العرافة، فلا النبوءة، ولا الأفكار المجردّة غيرت من طبيعتي، فأنا ما زلت جسداً وروحاً، قادراً على الحياة وفق التجربة، بكل ما فيها من مرارة، لم أمت بعد، وإن كنت قد وصلت إلى الحافة الخطرة بين الشباب والشيخوخة، ولو جاء الموت غداً وتحققت نبوءة العّرافة، فلن أكترث، لكنني لن أدخر جهداً، وهذا ما أنا متأكد منه تماماً، في أن أعيش حياتي حتى الرمق الأخير..

بكل ما يمكن أن يتوفر لي مما يمكن أن يحقق لي التوافق الروحي والنفسي، وإن صدقت العّرافة، فلا بأس، وإن أخفقت، فلا بأس أيضاً، أما الحكاية، فهي في الواقع لن تنتهي، فما زال أسامة صبياً، يسعى وراء عشبة الخلود، التي بحث عنها جلجامش، وكل ما يمني النفس فيه أن يتمكن التطور الجيني من وضع الحد النهائي لمعاناة البشر، بين حدود الواقع والأوهام، ويا لسوء حظي، حين يلتهمني الموت قبل أن يتوصل العلم إلى تحقيق ذلك..